www.diwanalarab.com

مكتبة ديوان العرب تقدم لكم

ريش نعام – مجموعة قصصية

قصص قصيرة جداً

للدكتور أحمد زياد محبك – سوريا

موافقة وزارة الإعلام

رقم 172 تاريخ 2007/2/12

لوحة الغلاف للفنان

سامي برهان

تصميم الغلاف

المهندسة نورة محبك

منشورات دار الثريا بحلب

الطبعة الأولى 2007

عنوان الأمل

الدنيا كلها أطبقت علي، لا المنزل ولا الشارع ولا الدنيا كلها تتسع لقهري وضيقي، كأنني في علبة من صفيح، كأني تحت مكبس يضغط علي من كل الجهات. لا القلب يقف، ولا الدماغ يكف عن التفكير، ولا الأعضاء تهدأ، ليت الشلل يريح، ليت الغيبوبة تمحو كل شيء، ليت الموت يأتي.

وأفتح المذياع، النغم ينساب إلى الأعماق، يتسلل في الشرايين، ينثال في كياني، ينسكب في الروح، أنا في غمار من نغم، مثل المطر ينسكب فوقي، كأني تحت مزراب، أي شذى أي عبق؟ ويشدو صباح فخري:

ربة الوجه الصبوح   أنت عنوان الأمل

1. قوة

زرته في المستشفى، قبل أن تُجرى له العملية، شددت على يده، وتمنيت له أن يخرج بالسلامة، فقال:

ـ اطمئن، سأخرج، وسأدمر كل أعدائي، عامر سأخرب دياره، ومرزوق سأجعله يخسر كل تجارته، ومسعود سأحوله إلى أتعس مخلوق، ومنتصر سأهزمه في المعركة الانتخابية، لن ينال أي صوت، حتى أنت، أنا أعرف، أنت زرتني شامتاً تتوقع لي الموت، سأخرج من العملية وسترى ماذا سأفعل، لا تظن أني سأموت.

2. العنب

عناقيد العنب تتدلى فوقي شهية ناضجة، أنهض إليها، كأنها تدنو، ولكنها ما تزال بعيدة، ثمة كرسي، أصعد فوقه، أصبحت دانية، أمد إليها فمي لأقطف حبة، وإذا برجل الكرسي تتحطم، وأنهض فزعاً من حلم لم يكتمل.

3. إنجاز مماثل

أنا وزوجتي والأولاد أمام التلفاز نراهم يحولون الصحراء القاحلة إلى مدينة، يسمونها لوس فيغاس، ويبنون فيها فندقاً من طوابق لا أعرف عددها، يسمونه ميراج، يبنون في أحد الطوابق مدينة البندقية، بجسورها وقنواتها والأمواج تسبح فيها، كأن واحداً من جن سليمان حملها وأودعها هناك، ,يبنون أمامه أهرامات ويصنعون أبا الهول ويشيدون برج إيفل وقوس النصر. تقول لي زوجتي:

ـ انظر ماذا فعلوا؟

ـ وانظري الآن ماذا سوف أفعل أنا.

وأنهض إلى الحاسوب وأكتب قصة قصيرة جداً .

4. طبيب العائلة

زار أخاه في مرضه، فأخذ يشكو له نفقات العلاج، من تصوير وتحاليل وأدوية ومراجعات، وبعد طول استماع قال له:

ـ الحمد لله أنا طبيب نفسي وطبيب العائلة، يوجعني رأسي فأشتري حبتين أسكالتين، ترتفع حرارة الولد فأسقيه حبة سيتامول.

ومد يده إلى جيبه، وناول أخاه علبة مضاد حيوي، وقال له:

ـ خذ اشرب هذا المضاد الحيوي، وتوكل على الله، هو ينفع لكل شيء، أنا اشتريته الآن من بائع على الرصيف، بعشر ليرات، قبل أن تكمل هذه الحبات ستشفى بإذن الله، اترك كل هذه الأدوية، ولا تراجع الطبيب، أنت طبيب نفسك.

5. اختلفت الأمور

رجع إلى الوطن بعد أربع سنوات من الغربة، اتصل بالهاتف أول ما اتصل بصديقه، ودعاه إلى زيارته، فأجابه:

ـ في أثناء غيابك تزوجت ورزقت بولد، فالواجب أن تزورني أنت أولاً، لتبارك لي بالزواج والولد.

أكد له أن شوقه إليه وللوطن أكبر من هذه المفاهيم المختلف فيها، ووعده أن يزوره في اليوم نفسه مساء، فأجابه:

ـ أنا آسف، لا أستطيع استقبالك اليوم، ولا يمكن أن تكون الزيارة هكذا فوراً، حياتنا الآن تطورت، لابد من تحديد الموعد قبل يومين أو ثلاثة، ولابد من التنسيق مع زوجتي، أنا الآن أب وزوج، كل شيء قد اختلف.

6. حكاية قديمة

كل يوم صباحاً أسرع إلى التلفاز، أتابع الأخبار في فضائيات عدة، من الجزيرة إلى العربية إلى الحرة إلى فضائيات أخرى، وتدخل زوجتي تحمل فنجان القهوة، وتسألني مثل هذه الأسئلة: متى ستشتري لي المعطف الجديد؟ متى سنبدل ستائر المنزل؟ متى سنشتري للأولاد ثياب الشتاء الجديدة؟ متى سندعو أهلي إلى الغداء؟ وأقول لها وعيناي على التلفاز:

ـ هناك ما هو أهم، الوقت ليس مناسباً الآن، انظري ماذا يجري في العالم، لا بد من تطوير جامعة الدول العربية، وحل مشكلة اللاجئين، واستعادة الأراضي المحتلة، وفض النزاع بين كوريا وأمريكا، العالم كله يشتعل، مشكلة أسعار النفط وحدها تكفي، وأنت همك فقط في الستائر والولائم والثياب، متى ستتحرر المرأة وتفكر بطريقة مختلفة على مستوى العالم، وليس على مستوى المنزل؟

ثم أصب فنجان القهوة في جوفي دفعة واحدة، وأخرج من المنزل إلى العالم الواسع.

7. السويداء

أكاد أختنق؟ أكاد أنفجر؟ ماذا أفعل؟

أنا السويداء حبة القلب، لوني أسود فاحم، ولكني بيضاء في نقاء الثلج، أنا مركز الطهر والصفاء والتسامح والحب، أرقد في قلب القلب، أحث صاحبي دائماً على الحب والصفاء، ولكنه ملأ من أمام البطين الأيمن بالحقد وحشا البطين الأيسر بالكراهية، ومن خلف ملأ البطين الأيسر بالجشع وعبأ البطين الأيمن بالحسد، وأنا أحرّض القلب على العمل بجد، أنقّي الدم، أخلصه من أي شكل من أشكال البغض، ولكن صاحبي غلف

القلب كله بالطمع وسوء الظن، حتى تضخم، وما عاد يتسع لمزيد من حقد أو بغض أو حسد أو جشع، حتى طفح وما عدت أستطيع تنقية الدم، فبدأ يحمل إلى الشرايين كل ما فاض من حقد أو بغض أو كراهية، وتضخم الجسم نفسه، فامتلأ الجسم، وازداد الوزن، واحتشى القلب، ماذا أفعل؟ والعقل ما يزال يرسل إلى القلب مزيداً من الأوامر: اكسب اربح اعزل تول احفر خذ نل أسرع عجِّل، هذا حقك، أنت على صواب حجتك الأقوى، أنت الأذكى، أنت الأغنى، أنت الأجدر، أنت الأقوى، وأنا تعبت، ما عدت أقدر، سأنفجر.

8. مخزن

هي أمامي، المنضدة تصل بيننا، يدي فوق يدها، أرشف من كأسها، تشرب من فنجاني، في عينيها أرى القاهرة وباريس وسيدني ونيويورك، لا حاجة لي في العالم، أنت العالم كله، فيك أرتحل، ومعك أمضي العمر، سمرتك الشهية قهوتي، وصوتك غذائي، هنا، في هذه المائدة مركز الكون، وحولها تدور الأفلاك كلها، النادل يطوف علينا بالقهوة والشاي والحلوى، لنا في هذا الركن من العالم المستقر والمقام، وليت هنا يكون الموت والنشور.

نجاة تغني لنا:

شكل ثاني حبك أنت شكل ثاني

والساعات وياك بتمر في ثواني

كل ثانية لها دقة شكل ثاني

شكل ثاني حبك أنت

ويغني خوليو ويغني ديمس روسز وتغني فيروز ويعزف جيمس لاست للناس السعداء، كلهم يغنون لنا وحدنا، نحن وحدنا العشاق في هذا الكون، روُّاد يأتون ويذهبون، بين صباح رائق وظهيرة هادئة ومساء لطيف وليل ساهر، والمائدة لا تفارقنا، لا نغيرها، هي أرضنا وسماؤنا.

اليوم أمر بما كان عشاً لنا ومأوى، فأجده تحول إلى مستودع للألبسة القديمة، أغامر فأدخله، العفونة تخنقني، الرطوبة تمتص كياني، السقف يكاد ينهار، الجدران تتداعى، أكوام من القمامة، لا مائدة ولا موسيقا، حارس عجوز يتقدم مني، أعرف فيه النادل الذي كان، يسألني، كأنه يطردني:

ـ ماذا تريد؟

أحدق فيه، أهمس له:

ـ فنجان قهوة مرّةٍ، مرّة جداً.

يحملق بي، ثم يهتف:

ـ أوه، هذا أنت، عرفتك، كيف حالك، كيف حالكما؟

أخرج وأنا أغمغم:

ـ كحال هذا المخزن.

9. التقرير السنوي

استدعاه المدير العام وسلمه باليد كتاب تكليفه بإعداد التقرير السنوي، ثم ترك المدير نفسه كرسيه، التف حول مكتبه، جلس بنفسه في المقعد إلى جواره، وأخذ يحدثه عن أهمية تكليفه ودلالات هذا التكليف وأبعاده، وأكد أن هذا التكليف هو تمهيد لتكليفه بإدارة أحد الفروع.

خرج وهو يشتعل حماسة، ونشط منذ اليوم التالي للعمل، زار معاون المدير، التقى أمين المستودعات، اجتمع مع رئيس لجنة الشراء، حاول أخذ موعد للاجتماع مع رئيس اللجنة الفنية، زار مدير الفرع الأول فلم يحصل منه على شيء، زار مدير الفرع الثاني، فرفض أن يطلعه على ملفات الفرع حفاظاً على السرية، طلب من مديره أن يسمح له بالاطلاع على السجلات، فتعلل بأن رئيس قسم المحفوظات في إجازة صحية، مرت ثلاثة أشهر لم يفلح في تحقيق شيء.

استدعاه المدير العام، وأطلعه على كتاب عزله من منصبه، وعودته موظفاً عادياً.

المدير العام كان يعلم أنه يسعى إلى الوصول إلى منصب المدير العام، ليحل محله، فكاد له، فكلفه بإعداد التقرير السنوي، ووجه كتباً سرية إلى الموظفين كافة بعدم التعاون معه. ومع التعيينات الجديدة، تم عزل المدير العام، وعين هو نفسه مديراً عاماً، وانتقم من كل الموظفين الذين لم يتعاونوا معه. وبدأ أحدهم يكيد له، ويعد العدة للحلول محله.

10. عند إشارة المرور

موقعها إلى جوار إشارة المرور، تصبح الإشارة حمراء، فتسرع إلى أقرب سيارة، تمد بيدها الناحلة خرقة إلى الزجاج وتشرع في مسحه، وما هي إلا ثوان، حتى تصبح الإشارة خضراء، وتنطلق السيارة، إما أن يرمي إليها السائق ببضع ليرات، وإما أن يرميها هي وخرقتها، وينطلق.

كل من يمر بالساحة الرئيسية في المدينة لا بد له أن يراها، في صيف أو في شتاء، في ليل أو في نهار، صغيرة ناحلة، سمراء مسودة الوجه واليدين من سخام السيارات، في نحو العاشرة، صدرها لم ينهد، هي أقرب إلى القبح، منكوشة الشعر، هي أقرب إلى البلاهة، لا تكاد تتكلم، ولكن هي في النهاية أنثى، ومع الأيام بدأت تكبر، بدأت تنضج قبل الأوان، ولما تبلغ الثانية عشرة، مئات الأيدي تمتد إلى صدرها من خلال نوافذ السيارات العابرة، وآلاف الكلمات البذيئة تنصب عليها، قيل إنها توزع المخدرات، قيل إنها تمارس العهر، قيل إنها تنشر الإيدز، وقيل إن يدها تمتد إلى السيارة لتسرق ما تستطيع سرقته، أصبحت حديث المدينة، هي وحدها بؤرة الفساد والرذيلة، شوهت منظر المدينة، منظرها لا يليق بالمدينة أمام السائحين الأجانب، لتذهب إلى الشوارع الخلفية الضيقة، ليس من الضروري أن تقف في الساحة الرئيسية في المدينة إلى جوار الفنادق السياحية الفخمة، أكثر الناس كرهاً لها هم أصحاب السيارات الفارهة الفخمة، وأكثر الناس رغبة في نوالها أو قتلها هم أصحاب السيارات الفارهة الفخمة. ذات صباح استيقظ الناس، وانطلقت السيارات فرأوا ولداً يقف في موضعها بدلاً منها، في نحو الثامنة من عمره، يشبهها كثيراً، يحمل خرقة يمسح بها زجاج السيارات.

شائعات أخرى كثيرة انتشرت: ذبحها أبوها، انتقلت إلى مدينة أخرى، هي عضو في عصابة، خطفها بضعة شباب اعتدوا عليها ثم قتلوها، جثتها لم تكتشف، عطف عليها شحاذ متسول فتزوجها.

لا أعرف كيف خطر لي فجأة أن أنزل من سيارة الأجرة عند إشارة المرور، أقترب من الصبي، يحاول الهرب، أناوله بضع ليرات، فيقول لي من غير أن أسأله:

ـ والله يا عم نحن تسعة إخوة، أمي ميتة، أبي مشلول، أختي هنا ماتت، دفعها صاحب سيارة فخمة بيده من نافذة السيارة، وهرب، وقعت، اصطدم رأسها بالرصيف، ولم يلحق به أحد، لم يأخذ رقم سيارته أحد، لم يسعفها أحد، ماتت، وهي تحمل هذه الخرقة، كانت المعيل الوحيد لنا.

11. لقاء

بهو الفندق يضمنا معاً مثل عروسين، ساعات وساعات تمضي، ونحن نتحدث، كأني أعرفها منذ ألف عام، كأنها تعرفني منذ ألفي عام، كأنها خلقت من ضلعي الأعوج، كأني خرجتُ من رحمها الدافئ، كأننا ننتظر هذا اللقاء منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها، منذ أن رفع السماء.

إلى جوارنا شجرة خضراء باسقة، تتدلى منها أضواء كالشموع، يضوع منها عبق كالمسك، تنداح أنغام ولحون، ونحن نتحدث ونتحدث ونتحدث، من خلق الأرض وانزياح القارات وانفجار البراكين إلى بحور الشعر وقصائد النثر ومسرح العبث واللامعقول، ومن القلب المفتوح والاستنساخ وزرع النخاع إلى أسعار النفط والطاقة البديلة وخرق طبقة الأوزون، نقترح الحلول للمجاعات والحروب والأوبئة، نخترع أنظمة ونظريات وقوانين.

أغوص في عينيها، تسبح في عيني، أرتشف الحديث من الأهداب، تغمرني بموسيقا الهمس، يلفنا صمت مقدس، هو أعلى من البوح، كأننا نعترف فيه بكل شيء. أي توافق هذا؟ أي انسجام؟ كأنها الموج، كأني الرمل، أشربها ولا أرتوي، والدفقات لا تنتهي.

يأتي النادل، يتسلل إلينا كالأفعى، تسوقه الظنون، يغرينا بكأس، بفاكهة، بحلوى، ونحن في مأمن، يحتوينا الظل، لا يمسنا سغب، ولا ينال منا ظمأ ولا جوع، ولا نحس ببرد ولا حر، وأنى للعوارض أن تعترينا ونحن جوهر وهيولى؟ . يلح النادل علينا، ندرك أنه كالموت، لا بد أن يحولنا إلى شكل، لا بد أن يسقينا الكأس، لابد أن يمنحنا الجسد والجدث، يستل منا الروح، يحولنا إلى جثتين.

هكذا، كتب على توأمَيْ الروح أن يفترقا، من غير أن تدنو يد من يد.

12. مراحل

كان أبي يرجع من المسجد بعد صلاة العشاء، تضع أمي الطعام على الأرض في صينية من نحاس كبيرة مدورة، نلتف حولها، نتناول الزيت والزعتر والخبز والجبن مع الشاي، ثم يقعد أبي إلى جوار المذياع الكهربائي الكبير، يلصق أذنه بالمذياع، يصغي إلى تعليق أحمد سعيد من صوت العرب بالقاهرة، وأنا أكتب وظيفتي، منبطحاً على وجهي فوق الفراش، وأغفو وفي أذني يرن النشيد من صوت العرب بالقاهرة: "أمجاد يا عرب أمجاد"، وفي التاسعة أو التاسعة والربع يكون أبي قد أغفى، ليستيقظ باكراً، فيؤدي صلاة الفجر، ثم يخرج إلى محله، فقد بارك الله في التبكير. كان ذلك في الخمسينيات أيام وحدة سورية مع مصر، وكنت في الخامسة عشرة من عمري، وكنت وكان وكنا وكانوا...

اليوم أنا في مقعدي أمام التلفاز، أمدد رجلي المتعبتين فوق منضدة صغيرة، أنتقل من فضائية إلى أخرى، وقد بلغت الستين، يشدني فيصل القاسم في قناة الجزيرة، وهو يوقد الحوار في الاتجاه المعاكس، ثم أنتقل إلى قناة العربية، ومنها إلى قناة الحرة، وحوالي الواحدة يفتح ولدي الباب ويدخل، وقبل أن أعاتبه على تأخره، وهو في مثل عمري، يوم كنت أنام في التاسعة، يناولني صندويتشات الهمبرغر، وعلب الكولا، فأسكت، ويمضي هو إلى غرفته، ليقعد أمام الحاسوب، يفتح شبكة الاتصالات العالمية، ولا أدري إلى أي المواقع يدخل، أهم بدخول غرفته، فتقول لي زوجتي:

ـ دعه.

وتأخذ من يدي جهاز التحكم، وهي تقول:

ـ أنهيت أنا أعمال اليوم، وصار الآن دوري في التحكم .

ومع الأذان للفجر نضطر كارهين إلى الهجوع إلى الفراش، لأن الرصيد المتبقي قد نفد من بطاقة فتح القنوات المشفرة.

13. عريف الصف

يرجع ولدي من المدرسة، قميصه ممزق، حقيبته معفرة بالتراب، آثار سحج وخمش بالأصابع في عنقه، أدهش، أسأله، فيتردد، ثم يخبرني أنه تشاجر مع بعض زملائه في المدرسة، وألح عليه، أسأله عن سبب الشجار، وبعد مداورة، وملاينة، يعترف بأنه مع مجموعة من الزملاء تصدوا لعريف الصف وضربوه خارج المدرسة، فتصدى لهم أصحابه، ودخلوا في عراك، نال كل واحد منهم نصيبه من الأذى، ثم أكد بفخار أنهم أوقعوا خسائر أكبر في عريف الصف وزملائه وأنه مع زملائه قد هزموهم. تزداد دهشتي، أسأله عن السبب، فيجيب:

ـ دعانا الأستاذ إلى انتخاب ديموقراطي لعريف الصف، ثم اختار في النهاية أحد الطلاب، مع أنه لم يحصل على أكبر عدد من الأصوات، احتج بأنه أطول طالب في الصف وأنه الأقوى، وأن صاحب الأصوات الأكثر ناحل وضعيف، ولكننا نعرف السبب، هذا الطالب هو قريبه، أبوه غني.

14. النافذة

"عمارة قديمة متواضعة جداً، تضم شقة صغيرة جداً، ليس فيها سوى غرفة للنوم وأخرى للضيوف ومطبخ وحمام، وردهة صغيرة للجلوس، لعلها خير ما يناسبك، ولكنها... "هكذا قال له دلال العقارات، وأشار إلى الدور الخامس، ثم أضاف:

ـ لذلك لا أستطيع الصعود معك، عليك الصعود وحدك.

استقبلته الخادمة، تركته في الردهة وهو يلهث، ثم غابت في الداخل. في الردهة أريكتان، ومنضدة، وتلفاز بالأبيض والأسود قديم، وثريا برونزية، الأرائك والمنضدة مغطاة بملاءات بيضاء مطرزة، مال لونها إلى الاصفرار، وستارة من الدانتيل مخرمة بالورود والزهور مسدلة على نافذة، وقد مال لونها إلى السواد، كل شيء في مكانه، كأنه في متحف للشمع.

انجذب إلى النافذة، هي واسعة جداً تكاد تكون بحجم الجدار، أزاح الستارة، فتح النافذة، كم هي رائعة. أطل على غابة خضراء واسعة تمتد حتى الأفق، نفحه الفضاء ندى وشذى ورطوبة، أحس هفهفة الأغصان، ورفيف الأوراق، أصغى إلى شدو العصافير. كم الشقة جميلة.

أحس بحركة وراءه، التفت، رأى سيدة، لم يستطع تخمين عمرها، تدنو منه بخطا هادئة، تمد إليه يدها مصافحة:

ـ أهلاً فريد بك.

ينظر إليها مدهوشاً ثم يعلق:

ـ هذه أنت، ست سلوى؟

ـ نعم هذه هي أنا، هل تغيرت كثيراً؟

ـ لا أبداً، أنت كما أنت، كأنه لم تمر ثلاثون سنة، أنا الذي تغيرت.

ـ شكراً هذا لطف منك، ولكن من دلك على شقتي؟

ـ البركة في دلال العقارات.

ـ ولكن أنا لا أفكر في البيع.

ـ أنا لا أبحث عن شراء.

ـ ولا أفكر في الإيجار.

ـ أنا أيضاً لا أفكر لا في الشراء ولا في الإيجار.

تسأله بهدوء وهي تثبت عينيها في عينيه:

ـ أين السيارات والعمارات والمزارع والمعامل والفيلا الفخمة؟

ـ لم أخسر ولم أقامر ولم تذهب هباء، وزعتها على الأولاد، أعطيتهم حقهم من الإرث وأنا على قيد الحياة.

وألقى بنفسه على الأريكة، أرسل زفرة طويلة، وقال:

ـ أنا أبحث في آخر العمر عن الراحة والاستقرار، بعد وفاة زوجتي وزواج كل الأولاد.

ونهض إلى النافذة، وهو يهمس:

ـ عندك نافذة رائعة جداً، أرجو أن تعذريني فقد فتحتها من غير استئذان.

اقتربت منه، وقفت إلى جواره، وهمست:

ـ صدقني لم تفتح منذ زمن بعيد، كأنها تنتظر وصولك.

15. وصية أب

مبارك يا ولدي، هذه أول خطوة في الطريق للوصول إلى القمة، أنا بدأت مثلك، بعد تخرجي عينت رئيس قسم المحركات، ثم مديراً للمعمل، ثم مديراً للشركة، ثم مديراً عاماً للشركات، ثم رئيساً للمشاريع، ثم مستشاراً أول في الوزارة، سر نجاحي يا ولدي هو اختياري للمعاون وللحاجب، المعاون يجب أن يكون أكثر الناس غباء وبلادة وعديم الخبرة وبعيداً عن الاختصاص ولا تسلمه أي عمل، ولا تمنحه أي صلاحية ولا تفوِّضه بشيء، نفذ كل شيء بنفسك، أما الحاجب فلا بد أن يكون من أسوأ الناس وأكثرهم عنفاً وشراسة وحدة، امنحه كل الصلاحيات، وفوضه بكل شيء، ولا تفعل أنت أي شيء بنفسك، دعه يفعل هو كل شيء، هذا هو سر نجاحي، أوصيك به.

16. أسباب وجيهة

تأخذ موضعها من المائدة، أقعد قبالتها، تصيح:

ـ لا تعال هنا إلى جانبي، سأطعمك بيدي.

وتمد يديها إلى الدجاجة المشوية، تقطع جناحيها، بأناملها، تفك الرقبة، تهمس:

ـ أنا أحب الرقبة جداً، هي طرية ولذيذة، خذ ذقها.

وتحشو فمي بقطعة لحم، ثم تتناول الجلد المحمر، تلقي به في فمها، وهي تقول:

ـ أوه، كم الجلد لذيذ، محمر، بهاره حاد ولذيذ.

تقضم اللحم، بأناملها الحمراء المدببة تنزع اللحم، لا تبقي على العظم شيئاً، والقليل المتبقي تنزعه بأسنانها، وهي تصيح:

ـ أوه، لذيذ.

تتناول قطعة مخلل، تعلق:

ـ هو شهي.

تتناول زجاجة الكولا، تفتحها بأناملها والدهن يلتمع عليها، فتتألق سمرتها الشهية، تصب في الكأس، تمسك الكأس بأناملها، ترفعها إلى فمها، تشرب منها، ثم ترفعها إلى فمي، وتهتف:

ـ خذ، اشرب من هنا، من موضع شفاهي.

وترمي في الصحن آخر قطعة عظم، ثم تهتف:

ـ هيا أشعل لي سيكارة، لن أحمل إلى المطبخ أي صحن، لا بد من السيكارة أولاً، وبأنامل يعلوها الزفر.

زوجتي تقشر جلد الدجاج، وتنحي لحم الرقبة، وترمي بالجناحين والظهر، ولا تأكل إلا لحم الصدر، وهي لا تأكله إلا بالشوكة والسكين، وتأبى أن تدخن السيكارة أو ترشف ولو قطرة من الماء أو الكولا إلا بعد أن يرفع النادل كل شيء عن المائدة، وإلا بعد أن تغسل يديها، وهي بالمناسبة لا تسمح لي بإدخال الدجاج المشوي ولا النيئ إلى البيت، هي لا تأكل الدجاج إلا في المطعم، تأبى أن تراه في المطبخ، أو أن تشم رائحته في البيت، وترفض أن نقعد متجاورين، فهذا في المطعم أمام الغرباء غير لائق، وفي البيت أمام الأولاد غير لائق، لابد أن نقعد متقابلين.

الآن أدركت أني على حق، وأن هناك أسباباً موجبة لهذه الخيانة.

17. عشر ليرات

إذا كان في جيبك عشر ليرات فهذا يعني أنك مترف جداً، إذ تستطيع أن تعيش في أرقى المستويات، وأن تستمتع بوقتك وحياتك، ولن تحرم نفسك من متع الدنيا ومباهجها. يمكنك شراء قرص صلب بعشر ليرات عليه ما تشاء من أفلام عادل إمام أو أغاني نانسي عجرم وبعشر ليرات لا أكثر يمكن تشتري قرصاً صلباً عليه فيلم جنسي ترى فيه ما لا يخطر على بال من أشكال. وبعشر ليرات أيضاً يمكنك أن تشتري علبة تبغ ملفوفة بورق السلوفان ومذهبة وملونة وسكائرها مفلترة وهي أجنبية مهربة. وبعشر ليرات أيضاً يمكنك أن تشتري أيضاً سيخين أو سفودين إذا شئت من الشواء عليهما عشر قطع من الفشافيش أو الكباب وأن تستمتع برائحة الشواء ويغمرك شذاه العبق من بائع يقف عند زاوية الشارع إلى جوار حاوية القمامة والقطط القذرة تموء من حولك. وبعشر ليرات فقط يمكنك أن تشرب كأس شاي من بائع على الرصيف وتقعد إلى جواره وتستمتع بزحام الحافلات والسيارات وتستمتع بحركتها الصاخبة وتملأ رئتيك بدخانها. وإذا أردت أن تطوف بالمدينة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، فيمكنك بعشر ليرات أن تطوف حولها وتستمتع بالزحام والسخام والهباب والحر، ولكن فقط عليك أن تحشر نفسك في ناقلة صغيرة تغص بركاب يزخمك عرقهم وروائح تبغهم وهم يدخنون.

وإذا أردت مزيداً من المتعة فلا بأس في أن تنفق خمساً وعشرين ليرة ثمن نَفَسٍ من المُعَسِّل لتملأ رئتيك بدخان احتراق بقايا تفاح وخرق ممزقة وقمامة متعفنة فتسلطن وترى نفسك ملكاً في قاعة لا أبواب لها ولا جدران لتطل على الدنيا كلها من شاهق والدوار يأخذ برأسك. وأخيراً يمكنك أن تقف أمام عربة فيها مئات الأنواع من عقود وأساور وشفرات وأمشاط وهدايا وتحف وأدوية وزجاجات عطر وميداليات وصور وحقائب وكؤوس ومدى وسكاكين وألعاب، أي قطعة ثمنها عشر ليرات، باب الحرية واسع أمامك يمكنك أن تختار ما تشاء.

مترف أنت، برجوازي، بل أرستقراطي، هل رأيت؟ ملك أنت، بعشر ليرات يمكنك شراء ما تريد.

18. بين الشيراتون والميريديان

هو يحبها، وهي تحبه، تقدم إلى خطبتها، وافق الأهل، وتم الاتفاق على كل شيء، ولكن في اللحظة الأخيرة برزت المشكلة: أين سيكون حفل الزفاف؟ أصر أهله على أن يكون في الميريديان، وأصر أهلها على أن يكون في الشيراتون، واشتعل الخلاف، وتم إلغاء كل شيء.

19. دعوة عشاء

على الدرج نهبط بهدوء، بعد عشاء دسم، دعانا إليه صديقنا وسيم، أصوات القهقهات والتعليقات كانت تلعلع:

ـ اللحم كان طرياً جداً

ـ نسبة الدسم كانت عالية

ـ يريد أن يقتلنا

ـ أنا ما تزال عيني في قطعة حلوى

ـ أنا وضعت برتقالة في جيبي

ـ الفاكهة، يا إلهي، هي من النوع الممتاز

ـ على الأقل انتظروا حتى يهضم الطعام

ـ أو على الأقل اخفضوا صوتكم فضحناه أمام الجيران

ـ نحن شهرناه ما فضحناه

ـ نحن نشكر جوده وكرمه

ـ لماذا هذا المصروف والإسراف؟

ـ ما هي مناسبة هذه الدعوة؟

ـ لكي نتكلم عليه

وتستمر القهقات والتعليقات ونحن ما نزال نهبط على الدرج.

20. مقعد إلى جوار النافذة

اتخذت مكاني في المقعد إلى جوار النافذة، وربطت حزام الأمان، ورفعت الغطاء إلى الأعلى عن النافذة، وأخذت أتأمل الطائرات الجاثمة على أرض المطار. وإذا صوت أنثوي ناعم يهمس لي:

ـ هل تسمح بإعطائي مكانك إلى جوار النافذة

فككت حزام الأمان على الفور، ونهضت، من غير تردد ولا تفكير، فقد سلبني الصوت، وأخذتني العينان الشهلاوان، ومرت أمامي كالفراشة، تنسمت شذى عطرها الناعم، وددت لو كنت ذا بطن كبيرة ممتدة إلى أمام كي ألامس جسدها الناعم، كدت أضع يدي على خصرها الناحل، ولكني ترددت. واستقرت إلى جواري في المقعد وهي تهمس:

ـ أشكرك، أنا أحب حلب كثيراً، وأود أن أراها من الطائرة وهي تقلع

انعقد لساني، ضاعت مني الكلمات، هي تحب مدينتي حلب، إذن فلترها من النافذة، أنا أحبها أكثر منها، رأيت حلب عشرات المرات، من أعلى وأنا أغادرها وأنا أعود إليها، ولكن فلتكن هذه المرة لها هي. كيف سأبدأ الحديث معها؟ هل أساعدها على ربط الحزام؟ هل أسألها عن شعورها وهي تغادر حلب؟ واضح أنها ليست من حلب؟ على كل حال أمامي أربع ساعات، الطريق إلى باريس طويلة، بل هي أربع ساعات وثلث الساعة، لن أكلمها الآن، سأتركها تستمتع برؤية حلب.

وتقلع الطائرة.

سأزورها في شقتها في باريس، سأدعوها إلى الفندق حيث تم الحجز لي، سنزور برج إيفل معاً، جميل أن تكون رفيقتي في باريس واحدة من بنات وطني، لن أبخل عليها، هذه أول مرة أزور فيها باريس، ولكن أعرف الكثير عنها، لعلها تزور باريس مثلي أول مرة، سنكتشف باريس معاً، سأمسك يدها ونحن ننزل معاً على سلم الطائرة، وأول هبوطنا على أرض المطار سوف أعانقها وأقبلها، أهنئها بسلامة الوصول.

بعد ثلث ساعة تحط الطائرة في دمشق، لتحمل ركاباً آخرين إلى باريس. وتنهض صديقتي، رفيقة الرحلة، تهمس لي:

ـ أشكر لك كرمك.

ـ لن تتابعي الرحلة إلى باريس؟

ـ لا، أنا مسافرة إلى دمشق فقط، سأنزل هنا، أتمنى لك رحلة ممتعة.

أرجع إلأى مقعدي بجوار النافذة.

وإذا برجل بدين جداً، بطنه ممتدة إلى أمام، كأنه مدير مطعم، يطل عليَّ ببطنه ووجهه الضخم، يرشقني بكلمات فرنسية، ويده القصيرة البدينة تشير إلى موضعي، لم أفهم من كلامه شيئاً، أدركت أنه يتمنى الجلوس في موضعي إلى جوار النافذة.

21. الصحف

المضيف يطوف على الركاب حاملاً رزمة من الصحف يعرضها عليهم، يسألهم إن كانوا يرغبون في القراءة، أربعة أو خمسة فقط من مئة وأربعين راكباً من ركاب الطائرة هم الذين أخذوا بعض الصحف.

بعد هنيهة دخل عليهم يدفع أمامه عربة الأطعمة والأشربة، كاد بعضهم ينهض قبل أن يصل إليه، وما اعتذر أحد.

22. إقبال شديد

لم يكن في القاعة سوى أربعة أو خمسة، في العام الماضي ألقى محاضرة أقل أهمية، ولكن القاعة كانت غاصة بالحاضرين، بالإضافة إلى بعض الواقفين. في العام الماضي كان مدير تحرير إحدى الصحف، واليوم هو مجرد محرر.

23. بيع الطوابع

وضع على باب محله لافتة كبيرة كتب عليها بالخط العريض: " لا يوجد لدينا طوابع"، ولكن مع ذلك يدخل عليه كل يوم عشرات المراجعين يسألونه إن كان عنده طوابع، المشكلة أن أمامه مقر البلدية وثمة معاملات كثيرة تقتضي طوابع أكثر، أخيراً قرر بيع طوابع، تقدم بطلب ترخيص، دفع أجور المعاملة، دفع الضرائب المستحقة سلفاً، دفع رسوم التأمين، استصدر الرخصة، اشترى آلاف الطوابع، وعلق لافتة كبيرة كتب عليها: "

يوجد عندنا طوابع "، مر أسبوع أسبوعان ولا أحد يسأله عن الطوابع، كانت البلدية قد افتتحت داخل المبنى كوة صغيرة لبيع الطوابع.

24. ملك الأمانة

هو ابن عمه، بدأ يزوره كل يوم، سعد به، يسكن في الحي نفسه، بيته قريب من محله، افتتح المحل قبل عشر سنوات، ولكنه نادراً ما كان يدخل محله، واليوم بدأ يزوره كل يوم، يقعد عنده ساعات، يشربان القهوة، بدأ يشتري من محله كل حاجاته، وهو يطلعه على الأسعار والأرباح، يشكو له من متاعب العمل، يحدثه عن أسرار المهنة، لابد أن تبيع للجيران بالدين، عليك أن تصبر، وعليك أن تصدق، لقد أسميت المحل محل الأمانة، ولا بد من الأمانة قولاً وفعلاً، لا بد من إدخال بضائع منوَّعة كثيرة، الزبون يريد أن يشتري كل شيء من محلك، فلا بد أن توفر مواد التنظيف والمعلبات والمناديل الورقية بأنواعها والمرطبات والتبغ واللبن والحليب والجبن والخبز، حتى إن الزبون يود لو وفرت له في المحل الدواء، أحس أنه أخ وصديق، وليس مجرد ابن عم، وكان يبيعه الحاجات من غير ربح، يطلعه على ثمن الشراء، وسعر المبيع، يحدثه عن مصادر البضاعة، وموزعي الجملة، والمفرق، يحدثه عن سكان الحي وأسرهم وأولادهم وعاداتهم في الشراء، وعن حاجاتهم، وعن أكثر الأشياء طلباً، بعد ثلاثة أشهر رأى محلاً جديداً يفتتح أمام محله، لبيع المعلبات والحاجات المنزلية، وقد علقت فوقه لافتة تحمل اسم: " ملك الأمانة "، وإذا صاحب المحل هو ابن عمه نفسه.

25. كفة وكفة

قالت كفة الميزان لأختها، وقد علت:

ـ انظري أنا أعلى منك.

قالت الكفة الراجحة:

ـ لأنك فارغة.

26. سائحة

القضبان بيننا وبينه، وهو من ورائها يروح ويجيء. لا أعرف هل هو غضبان ؟ هل هو ثائر؟ هل هو جائع؟

رقعة واسعة من الأرض وراءه، فيها تلال وأشجار، هناك يمكنه أن يعدو أو يتسلق أو ينام، ولكنه يأبى إلا أن يتجه إلينا، كأنه يود الخروج إلينا، كأنه يود اختراق القضبان. هل ألف زوار الحديقة؟ هل أنس بهم؟ ليس معنا ما نلقيه إليه، هناك أمام البط والإوز والقردة رمينا إليها بأشكال شتى من الأطعمة؟ ولكن ماذا يمكن أن نرمي لنمر هائج؟

إلى جانبي أصغر أعضاء الفريق، في العشرين، تتأمله بشغف، وهو يروح ويجيء. أسألها بعفوية:

ـ ماذا تتمنين هذه اللحظة؟

وعلى الفور تجيب وهي تضغط بصدرها على قضبان القفص:

ـ أود لو أرمي بنفسي إليه .

27. موقف

أبدَوا إعجاباً شديداً بالقصة، شجعوه على نشرها، طالبوه أن يكتب دائماً مثلها، قالوا له هي الأفضل، والأجمل، قالوا له نحن نحتاج إلى مثل هذه القصص. وبعد نشرها أمضى ثلاثة أيام رهن التحقيق والاستجواب، ولم يسأل عنه فيها أحد. وبعد أن أطلق سراحه، ما عاد يتعرف إليه منهم أحد. وإلى اليوم لا أحد منهم يزوره، ولا أحد منهم يسأل عنه.

28. جرس

كلما وقف السائق أو انطلق بسيارته سمعت صوت جرس، هو صوت خشن غليظ، كصوت الجرس الذي يعلق في عنق بغل الطاحون.

مددت بصري إلى أمام، وأنا في المقعد الخلفي، فرأيت جرساً معلقاً ببدَّال السرعة، ولما سألته عنه أجاب:

ـ هذا هو الشائع الآن، كل السائقين علقوا جرس البغل في بدَّال السرعة، هل تريد أن يعلقوا موسيقا عبد الوهاب أو صباح فخري؟ أو موسيقا بتهوفن؟

29. المصحف

سيارة شاحنة أمامنا، تجاوزها من اليمين، ثم دخل أمامها، وهو يسب ويلعن ويشتم. إشارة المرور حمراء، التفت يمنة ويسرة، ثم صاح: **"ما عندي صبر"**، وتجاوز بسيارته الإشارة، وهو يلعن ويشتم. في شارع ضيق يغص بأولاد منصرفين من المدرسة، يسرع، وهو يشتم الأولاد والآباء والأمهات والإنجاب. عجوز تعبر الشارع، يلعنها. أسأله:

ـ لماذا وضعت هذا المصحف الصغير هنا أمامك وراء المقود؟

ـ هناك ألف سائق طائش، لا ذوق عندهم ولا فهم ولا أخلاق، سبعون بالمئة منهم أراذل وأشرار وفسقة، لا أخلاق ولا وجدان، هذا المصحف للحفظ، حتى يبعد الله عني أذاهم.

30. الهدية

تفتح الباب الخادمة، تقودنا إلى غرفة الضيوف، الممر والبهو وغرفة الضيوف كلها غاصة بتحف وهدايا ولوحات، تملأ الجدران والزوايا والأركان، لا موضع لهدية كبيرة كانت أو صغيرة.

قبل أن نقعد، يشير صاحبي أو بالأحرى السمسار إلى ما حولنا قائلاً:

ـ انظر حولك، أي هدية يمكن أن تقدم إليه؟ عنده كل شيء، هذه الثريا المعلقة فوق أنا حملتها له بنفسي، أحدهم قدم له هدية سيارة، اطمئن أنا سوف أسلمه المبلغ، بعد ذلك أنت تجود عليّ بما تطيب به نفسك، أنا أقبل منك ولو فنجان قهوة، أنت صديق عزيز.

31. وجوه

هو إلى جواري في الحافلة، الركاب يصعدون إليها راكباً إثر راكب، ونحن ننتظر انطلاقها.

يقول لي:

ـ انظر إلى هذا، يعقد ما بين حاجبيه، كأنه وُلِدَ غاضباً، وهذا يرفع أرنبة أنفه، كأنه يشم رائحة كريهة.

ويضحك ثم يعلق:

ـ وهذا كأنه لم يغسل وجهه طوال عمره، وهذا يرخي شفته السفلى، كأنه أهبل، انظر انظر إلى هذا، كأنه استيقظ الآن من نومه، عيناه متورمتان، وهذا يضحك لغير ما سبب، ما من راكب حلق ذقنه هذا الصباح، كلهم بذقون نبت شعرها.

وأسمع اسمي، يناديني الدليل، يقول لي :

ـ هناك حقيبة باسمك على الرصيف، نسيت وضعها في صندوق الحافلة.

كيف نسيت الحقيبة، ما من عادتي، كنت أنتظر صديقي عماد، سبقته إلى مركز انطلاق الحافلات، وحين وصل أسرعت إلى مساعدته، كان يدفع عربة تحمل ثلاث حقائب، هو أعز صديق. وأنزل أضع الحقيبة في الصندوق، ثم أصعد إلى الحافلة. أدخل بين صفي المقاعد، متجهاً إلى مقعدي بجوار صديقي، أنظر في وجهه، أراه ينظر في وجهي. ترى ماذا يقول عني؟

32. لا بد من الوساطة

أقف تحت المظلة، أنتظر سيارة أجرة، كأن كل سيارات الأجرة في البلد أصبحت مفقودة، مثل القطع النادر، كأنه ما من سيارة أجرة، وأنا أتصبب عرقاً، والحر قاتل. المروحة في صندوقها إلى جواري على الرصيف، أتمنى لو أخرجها لتعمل، لأحركها لو بيدي، لا نسمة هواء، ولا سيارة أجرة. ساعة أمضيت وأنا أتجول في الأسواق بحثاً عن مروحة، حتى المروحة أصبحت مفقودة، فقدت مع الهواء المفقود، بالأمس كنت أرى المراوح في كل محل، والآن بصعوبة أعثر على مروحة، وليست من النوع الذي كنت أريد. وتقف سيارة أجرة أمامي، أهم بفتح الباب، ولكن السائق يسألني:

ـ إلى أين؟

أدهش لسؤاله؟ إلى أين؟ بالتأكيد ليس إلى المريخ ولا إلى القمر ولا إلى العاصمة ولا إلى القرية، هنا إلى حي الميدان.

ـ إلى الميدان.

يرفع رأسه، يشير معتذراً، ويمضي.

ما بال حي الميدان؟ وتقف بعده على الفور سيارة أخرى، أفتح الباب فوراً وأدخل، لو سألني فلن أجيبه، سأقول له إلى نار جهنم، للخلاص من نار الدنيا. وينطلق بي، وأنا أمسح عرقي. السيارة فرن مشتعل، بل بركان، ظهري لا أسنده إلى المقعد، ومع ذلك أحس بالنار، المقعد الجلدي من تحتي يشويني، ماذا أفعل، لحمي يسيخ، يهترئ، يذوب مثل الدهن. أحدثه عن السائق السابق، فيعتذر له، مبرراً موقف ذلك السائق بأنه انصرف من عمله، ويريد الذهاب إلى البيت، ولا يريد حمل راكب باتجاه حي بعيد عن بيته، وهو يعد ذلك أمراً عادياً، ولا سيما في هذا الحر، فمن حق السائق أيضاً أن ينصرف إلى بيته ويرتاح. ثم يبادر إلى سؤالي عن المروحة، وعن نوعها، وعن ثمنها، ويعلق:

ـ أمس كانت تباع بنصف هذا الثمن، موجة الحر رفعت الأسعار، كل الأسعار، لو قلت لي لاشتريت لك مروحة يابانية بمثل هذا السعر، هل ذهبت لشرائها وحدك؟

أضحك في سري، أعلق:

ـ طبعاً وحدي، هل أنا ذاهب لشراء عمارة لآخذ معي محامي الخاص، أم هل أنا ذاهب لإجراء عملية القلب المفتوح لآخذ معي أخي أو صديقي أو زوجتي؟

ويعلق السائق:

ـ أخي، إذا أردت شراء جورب أو قميص فيجب أن تأخذ معك من هو خبير بالجوارب أو القمصان، أو من هو صديق البائع أو أخوه، وإلا غشك وباعك بضعف الثمن، فما بالك إذا أردت شراء مروحة؟

وأصل إلى حي الميدان، وقد أصبح قميصي مبللاً بالعرق. أدفع إلى السائق بورقة نقدية من فئة المئة، وأنا أنظر إلى العداد، وهو يشير إلى الستين، أقف أنتظر من السائق أن يرد لي البقية، فإذا هو يقول لي:

ـ الأجرة في هذا الحر مضاعفة.

أنظر إليه مستنكراً، فيعلق وهو يضحك:

ـ عليك في مرة قادمة أن يركب معك في السيارة من هو صديق السائق أو قريبه، لا بد من المعرفة، أو الواسطة إذا شئت.

33. في الاتجاه المعاكس

يقف على الرصيف ينتظر سيارة أجرة.

انقلبت حياته رأساً على عقب، كل شيء اختلف، الدنيا كلها تغيرت أمام عينيه، عليه أن يسرع إلى أقرب مخبر، ليجري فحوصات الدم، وهو على الرصيف ينتظر سيارة أجرة، ولا سيارة أجرة. وتصل الحافلة، لا بأس ، يمكن أن تقله إلى المخبر، ومن حسن حظه أن الحافلة غير مزدحمة. يقعد إلى جوار النافذة، كأنه يرى مدينته أول مرة، لا بد من إجراء العملية، ولابد من اختبار الدم أولاً، الطبيب فاجأه، هو صديقه، ولكن لم يصدقه، ما كان يعلم أنه يحمل في المرارة ثلاث حُصَيَّات، ولا بد من استئصالها.

هو صديقه، ولكن قال له هذا الجسد لا قيمة له، إدخال المشرط فيه أمر عادي جداً، لا أنت تتألم، ولا نحن نتألم، يمكن الاكتفاء بالتخدير الموضعي، سترانا نشق ونخيط وتتلوث أيدينا بالدم، ولن تتألم، لأنه لا جسيمات حسية للألم تحت الجلد، الجلد وحده هو الحساس للألم، وعملنا كله تحت الجلد، وما دام التخدير الموضعي قد تم فلا ألم، نعم، أنا كالجزار، هكذا قال، ولكن الجزار يستخدم السكين ويسلخ الجلد كي يميت الحياة، ونحن نستخدم المشرط ونسلخ الجلد كي نحفظ الحياة، فالفرق كبير، وفي النهاية عليك أن تدرك أن هذا الجسد لا قيمة له، القيمة للروح.

اللذة مثل الألم، هكذا قال له صديقه الطبيب الجراح، هما نتاج احتكاك جسمين بعضهما ببعض، يقوى الاحتكاك ويشتد فيكون الألم، وينعم الاحتكاك ويلين فتكون اللذة، والألم واللذة هما نتاج استجابة نهاية الأعصاب لهذا الاحتكاك، هي مجرد استجابة، هادئة أو شديدة، حادة أو ناعمة، ومن ناحية فيزيائية بحتة في المحصلة الألم واللذة سيان.

ما هذه الفلسفة، لا يصدق، أمضى عمره وهو يجرى الاحتكاك الناعم، بين جسده وجسد آخر، بل يجري الاحتكاك الحاد والعنيف والمرهق، ولا يشعر بغير اللذة. الجسد لا قيمة له إذن، سيذله ويهينه، وداعاً للحمامات الفاخرة، وداعاً للمياه المعطرة وأفخر أنواع الصابون، وداعاً للجسد والمتعة والملذات، بل وداعاً للطعام الشراب، وأهلاً وسهلاً بالألم والعملية والموت.

وتقف الحافلة، تصعد سيدة في منتصف العمر، تقعد إلى جواره، يغمره عطرها، تلتصق به، يلتصق بها، تهمس له، ويهمس لها. يهمل التحليل، ويمضي معها.

34. الشيراتون

خرجت من المطار أجر حقيبتي، فأسرع إليَّ سائق أجرة يفتح باب سيارته، يتناول مني الحقيبة، وهو يرحب بي بإنكليزية ركيكة، كأنه يعرفني منذ دهر، ثم ينطلق بالسيارة، وهو يسألني إلى أي فندق، فأجيبه بكلمة واحدة:

ـ الشيراتون

ازداد ترحيبه بي، وأخذ يهدر بإنكليزيته الركيكة.

ـ أهلاً بك، ستعجبك البلد كثيراً، كل شيء عندنا متوفر، دخلنا في عصر الصناعة السياحية، عندنا فنادق من خمسة نجوم، كأنها قطعة من أوربة، فيها مسابح ومطاعم وموائد قمار وإنترنت وكل الخدمات ووسائل التسلية والترفيه والمتعة البريئة وغير البريئة.

يلتقط أنفاسه، ثم يتابع كلامه بإنكليزيته الركيكة، ولكن بنبرة هامسة:

ـ عندي شقة مفروشة في أرقى حي، كل الخدمات متوفرة، هي أرخص من الفندق، ويمكن أن تأخذ فيها حريتك الكاملة، يمكن أن تستأجرها لأسبوع أو أسبوعين أو شهر، كما تشاء.

ما أزال أستمع إليه، وأنا صامت، وهو ما يزال يثرثر.

أمام باب الفندق يسرع إليَّ اثنان من أعضاء لجنة الاستقبال، يرحبان بي، أحدهما يحمل الحقيبة، والآخر يأبى إلآ أن يدفع للسائق الأجرة، السائق ينظر إليَّ بمرارة، أقول له:

ـ يا أخي أنا عربي مثلك، وأنا مدعو لحضور ندوة.

35. أول مرة

دخل علينا، وقال لنا: "اليوم سننتخب رئيس الصف"، ثم دعا من يرغب في الرئاسة إلى ترشيح نفسه، فرشح سبعة أو ثمانية أنفسهم، فطلب من أحد التلاميذ أن يسجل أسماءهم على اللوح، ثم سألهم إن كان فيهم من يود الانسحاب، فانسحب واحد وبقي ستة، ثم أخرج من حقيبته مجموعة أوراق صغيرة، مهرها بتوقيعه، ثم وزعها علينا واحداً واحداً، وهو يعدنا، فإذا نحن اثنان وأربعون، طلب إلينا أن يكتب كل واحد منَّا اسم واحد من المرشحين الستة، يود أن يكون رئيساً للصف، وحثنا على كتابة الاسم بحرية وسرية، ثم جمع الأوراق وعدها، فإذا هي بعدد التلاميذ، ثم دعا طالبين لمراقبته وهو يفتح الأوراق ويقرأ الأسماء، كما دعا ستة تلاميذ

ليقف كل واحد منهم أمام اللوح وإلى جوار اسم أحد المرشحين، لوضع إشارة إلى جانب اسمه لدى قراءته، ودعانا جميعاً إلى متابعة فرز الأوراق، وقراءة الأسماء، وتسجيل عدد الأصوات، وفي النهاية فاز برئاسة الصف الأكثر عدد أصوات، وأصبح نائباً عنه التالي له في عدد الأصوات. كان ذلك قبل خمسين عاماً، وكان معلماً متميزاً، ما أزال أذكر اسمه: "وحيد"، وكنت في الصف الرابع الابتدائي، وهي المرة الأولى التي أمارس فيها الديموقراطية، وأنا طفل.

36. سيكارة

المطر في الخارج يضرب الزجاج كأنه يريد أن يكسره، والبرق يلتمع عقب قعقعات رعد قاصف تكاد تقتلع القاعة والمبنى من أسسه، ورؤوس الأشجار تترنح وتكاد تهوي، كل شيء يوحي بأن السيل في الخارج جارف.

مرت نصف ساعة والمدير العام لم يصل، ومديرو الدوائر قلقون على سياراتهم، يخشون أن يجرفها السيل في الخارج، وهم ينتظرون وصول المدير العام، الملل يأكل أعصابهم، وينخرها، كل واحد منهم يود لو أشعل سيكارته أو غليونه، ولكنهم يعلمون أن المدير العام يكره التدخين، ولا يسمح لأحد بأن يدخن في حضوره، وهم ينتظرون وصوله ليقدم لهم تقريره عن المؤتمر العالمي الذي حضره في بنغلاديش.

ربع ساعة أخرى مرت، ويفتح الباب الجانبي ويدخل منه المدير العام، يسير خلفه مباشرة معاونه الأول، يحمل مصنفاً، يضعه أمامه على المنصة.

من غير تحية ولا اعتذار يبدأ كلامه:

ـ تعلمون أن السيد الوزير قد كلفني بحضور المؤتمر العالمي، وقد تأخرت الطائرة التي كانت ستعود بوفدنا، ولذلك لم أستطع أن أعد التقرير الذي كان يجب أن أقرأه عليكم عن المؤتمر، ولكن يكفي أن أحدثكم عن أربع نقاط، النقطة الأولى: هي الوفود المختصة التي كانت تمثل بلادها، وورقات العمل التي كانت تطرحها، وعلى رأس كل وفد بروفيسور أو عالم كبير، كأن أعضاء الوفود قد اختيروا من كبار العلماء والمختصين، وكأن أوراق العمل رسائل ماجستير أو دكتوراه قد أعدت بعناية بالغة، والنقطة الثانية الدقة في المواعيد وضبط الجلسات واحترام الوقت، والنقطة الثالثة الحرية في الطرح والحوار والاستماع إلى مختلف وجهات النظر واحترامها، والنقطة الرابعة.

ويسعل المدير العام، يتوقف عن الحديث، يخرج من جيبه سيكارة، يسرع نائبه الأول ليشعل له السيكارة من قداحته الخاصة، ينفث الدخان،

ينظر أمامه، لا يجد على المنصة منفضة للسكائر، فينفض الرماد على الأرض، ويتابع كلامه:

ـ أما النقطة الرابعة فهي النظافة.

37. ما يزال في السماء فسحة للقمر

لا أجد ما أفعل، أخرج من غرفتي، أدخل في الشوارع المزدحمة، أبحث عن ذاتي، واجهات المحلات تأخذني إلى أعماقها، هذه دمية ترتدي ثوب زفاف، ليتها عروسي، وتلك غرفة نوم ذات سرير واسع، لم لا يكون لي؟ هذا التلفاز بعرض الجدار، متى يمكنني أن أشتريه؟ أود رؤية المذيعة والمغنية والراقصة بحجمها الطبيعي، لعلها تخرج من التلفاز لتكون معي إلى جواري في غرفتي، لن يسمح لي بعبور الشارع رتل السيارت المتدفق، فلأعبر، أعرف أن صاحب سيارة المليار قادر على دفع ثمن دمي لأمي، فلتستمتع عجلات سيارته بدمي، سينزل من سيارته بكامل أناقته، ينظر إلى العجلات، ليقول: السافل القذر لوث العجلات، هذا ثمن دمه خذوه، فقط اغسلوا العجلات، الصبية في داخل المحل أمام الصندوق تدفع للبائع بالدولار ثمن زجاجة عطر، فقط أتمنى شراء فرشاة أسنان من هذا المحل الفاخر، أسناني نخرها الصمت، الأقدام في زحام الرصيف تدوس على حذائي، فليدوسوا على حذاء لا يعرف المسح، لكنهم يمرون مسرعين من غير أن يعتذروا، الإعلانات تشد عيوننا وعقولنا وجيوبنا وأفواهنا ورغباتنا، في كل إعلان وجه وصدر وفم كأنها أجزاء من عرض جنسي، لن أرجع إلى غرفتي حتى تثقل مني الأجفان وتتورم الأقدام، كم يحلو النوم هنا في هذه الساحة، ولكن ما هذا؟ هل هذه السماء حقيقة؟ وهل هذا هو القمر؟ لا أصدق؟ كيف بقيت في السماء فسحة يطل منها القمر؟.

38. عقوبة

عملت مدة سنة عضواً في لجنة العقوبات الموقعة بحق الطلاب ممن خالفوا في الامتحان أو غشوا، على مستوى الجامعة، كنا في اللجنة ثمانية أعضاء، كان أحد الزملاء أكثر الأعضاء تشدداً، كان يدقق في وثائق الغش بمهارة ويكتشف ما يدين الطالب، كما كان يبحث في نص القانون عن أكثر العقوبات تشدداً وقسوة، حيرني أمره، بعد مدة سألت عنه زملاءه في الكلية ممن كانوا معه على مقاعد الدراسة يوم كان طالباً، فأكدوا لي أنه كان من أكثر الطلاب غشاً في الامتحان.

39. فنجان قهوة

هو أمامها، المائدة تصل بينهما، يداها ترتاحان في يديه، وهو يشد عليهما، الجو خانق، ما من نسمة، والحر ثقيل، مع أنه قد مر على غياب الشمس أكثر من ساعتين، وهما في فناء مقصف مفتوح، يأتيهما النادل بالقهوة، طلب هو القهوة، كانت تود لو تطلب المثلجات، ولكنها طلبت القهوة مثله، استل سيكارة من علبة تبغه، اعتذرت إليه، أكدت له أنها لا تدخن، ألح عليها، أدركت أنه يريد اختبارها، ودت لو تدخن، ولكنها اعتذرت بشدة، وعيناها عالقتان بالسيكارة، لا تريد أن يكوّن عنها فكرة سيئة، هو يحق له أن يدخن، وهي لا يحق لها، هذه هي قناعته، تعرف ذلك جيداً، ولكن غداً بعد الزواج يمكن أن تدخن، وعندئذ لن يلومها، سيكون لها علبة تبغها، ينفث الدخان بإيقاع من يحترف التدخين، حين قدم له والدها سيكارة اعتذر إليه، مؤكداً له أنه لا يدخن، يريد أن ينال موافقة والدها على خطبته لها، ولكن لا أحد معهما الآن، يمكنه أن يدخن كما يشاء، ما كان أبوها ليرفض خطبته لها لو أنه أشعل سيكارته، ولكنه هو الآخر يدرك أن التدخين عادة ذميمة، وأن أكثر الآباء يريدون لبناتهم أزواجاً لا يدخنون، على كل حال المشكلة ليست في التدخين، المشكلة في أسلوب التدخين، هاهو ذا ينفض الرماد على الأرض، مع وجود منفضة للسكائر على الطاولة، يحتسي القهوة سريعاً، كأن الغاية مجرد صب القهوة في الجوف، لا الاستمتاع بنكهتها، وبالحديث والجلسة والجو، يرفع الفنجان إلى أعلى، يرفع رأسه، يصب في فمه كل ما في قعر الفنجان من ثمالة، كم تكره هذه العادة، كذلك يحرق السيكارة بسرعة، كأن الغاية مجرد حرقها، يمتص الدخان منها، يحرقها حتى تصل الشعلة الحمراء إلى الفلتر، يغمس بقية السيكارة في قعر الفنجان.

ـ كان الله في عون من سيغسل الفنجان.

ـ ولماذا؟

ـ تفاعل بقية السيكارة مع بقية البن ينتج رائحة ثقيلة جداً.

ـ لا تشفقي عليه، يجب أن يختنق، لماذا اختار تلك المهنة القذرة.

ترجع إلى البيت، تمضي الليل لا تستطيع النوم، هل تقول لأمها وأبيها إن ذلك الخطيب لا يناسبها؟

40. الطالع من النهر

كل شهر، عندما يكتمل القمر، يحشر القوم كلهم، شيباً وشباباً، رجالاً ونساءً، يسوقهم الحرس الخاص، ويقودهم الأئمة والمفكرون والإعلاميون، إلى سفح تلة تطل على النهر، ويظهر السلطان على الضفة المقابلة، يخرج على قومه بكامل زينته، تحف به الأعلام والرايات والطبول والموسيقا والخيول المطهمة والجمال البلق، ويلقي بنفسه في النهر، ويعبر النهر، عشرة من الغطاسين الأقوياء، يحملونه على أذرعهم، وهم تحت الماء، لا يظهر منهم شيء، وهو يتظاهر بالسباحة، ليصل إلى الضفة المقابلة للتلة، ويسرع الحرس الخاص إلى لف جسده بالحرير، ويصلي له القوم، ويسجدون.

وبلغ الثمانين، أو يزيد، اتفق مع بعض المخلصين، ورمى بنفسه في النهر من الضفة الأخرى، وانتظر القوم ظهوره في الضفة المقابلة لهم، وتأخر ظهوره، ولا حركة، وقد حجبت القمر سحابة. وصاح بعضهم: غرق السلطان. وضج القوم بالهتاف، وعلت الزغاريد، وانعقدت حلقات الرقص، ولعلع الرصاص ابتهاجاً، ونحرت الإبل، وعمت الفرحة. وانقشعت السحابة عن وجه القمر. وعلى بعد بضعة أمتار من التلة، ظهر السلطان وهو يمشي متهالكاً،وأسرع إليه الإعلاميون والصحفيون وسلطت عليه الأضواء.

ـ عاش السلطان، عاش الطالع من النهر.

41. الموسوعي

أول ندوة حضرتها له كانت عن الموسيقا، ثم أقام ندوة عن العولمة، الندوة الثالثة كانت عن الإنسان والبيئة، ثم ألقى محاضرة عن الحداثة، ومحاضرة أخرى عن الفنون الجميلة، ومحاضرة رابعة عن الإيدز، ثم شارك في ندوة عن أضرار التدخين، وأخرى عن أمراض القلب، وثالثة عن المسرح التجريبي، ثم دعاني إلى محاضرة عن مستقبل العلوم، وألقى محاضرة أخرى عن فن العمارة، ومحاضرة ثالثة عن البطالة، في أثناء المحاضرة همس لي رجل إلى جواري في القاعة يعبر عن إعجابه:

ـ هذا الأستاذ موسوعة، يتكلم على كل شيء.

ثم قال لي في نهاية المحاضرة:

ـ ما شاء الله، صوته جهوري، حلقه لا يجف ولا يتعب، ويتكلم دائماً عن ظهر قلب، لا ورقة ولا قلم ولا دفتر، يهدر مثل شلال.

ونحن نغادر القاعة، سار إلى جواري قليلاً، ثم سأل:

ـ أنا بصراحة ما درست، ثقافتي من هنا وهناك، أحضر كل المحاضرات وكل الندوات، لا أترك أي محاضرة، هذا الأستاذ أدهشني، ما رأيك أنت؟

42. أقفاص وأحواض

قال الأول:

ـ لا أحب مغادرة البيت، بيتي هو جنتي، أولادي وزوجتي هم حياتي، ما إن أغادر البيت حتى أحس بالموت، كأني سمك خرج من حوضه، أحب الأيام إلى نفسي يوم الإجازة، أمضيه في البيت، لا أجد خارج البيت إلا الغش والكذب والخداع، جارك يراك فلا يحييك ولا تحييه، سائق سيارة الأجرة يتلاعب بالعداد، مديرك يعاتبك على تأخرك، زملاؤك في العمل يضايقونك بدخان السكائر، المستخدم يقدم لك فنجان قهوة غير نظيف، المراجعون يصرخون بك لأنك لم تنجز معاملاتهم...

قال الثاني:

ـ أنا جنتي خارج بيتي، أشعر في البيت كأني عصفور في قفص، خارجه أجد حريتي، الأولاد يضجون في البيت ويصرخون، الزوجة تمنعني من التدخين، طلباتها لا تنتهي، ولاسيما يوم الإجازة، في المكتب أمازح زميلاتي الموظفات، أستمتع بأناقتهن، أغازل المراجعات، أدخن ما شئت من السكائر، أشرب ما شئت من فناجين القهوة، لا يهمني إن كانت نظيفة أو غير نظيفة، المهم أنها تأتيني فور طلبها، ولا يهمني إن عاتبني المدير أو أثنى علي، عتابه أهون علي من عتاب زوجتي، أرحب بالمراجعين، طلباتهم أهون عندي من طلبات أولادي... جنتي أنا خارج البيت.

43. اعرف وزنك

أهبط على الدرج، متوكئاً على عصاي، وخارج البناء، أقف ألتفت إلى هنا وهناك أبحث عمن أسأله ليدلني على صيدلية قريبة، فإذا برجل عجوز يقعد على كرسي صغير إلى جانب المدخل، وأمامه على الرصيف ميزان صغير، وهو ينادي بصوت خافت مبحوح، لا يكاد يسمعه أحد:

ـ اعرف وزنك، حافظ على صحتك، بخمس ليرات، بخمس ليرات.

إلى جانب الميزان قطة صغيرة، صغيرة جداً ناحلة هزيلة، يحمل علبة سردين عتيقة صدئة، يميل عليها، يقدم لها طعاماً في العلبة، ثم يعود إلى النداء بصوت خافت مبحوح، لا يكاد يسمعه أحد. هل لديه أسرة؟ هل عنده أولاد؟ هل هذا هو عمله الوحيد؟ كيف يمكن أن يعيش؟ كم يمكن أن يبلغ دخله؟ يجب أن يقف كل يوم على هذا الميزان مئة شخص حتى يحصل على خمسمئة ليرة، ولا يمكن أن تكفيه مصروف يوم واحد؟ وما شأن هذه القطة؟ لماذا هما معاً هنا في قلب المدينة؟ في أكثر مناطقها كثافة وازدحاماً وحركة؟ لم أمكث عند الطبيب سوى خمس دقائق، قاس ضغطي، استمع إلى دقات قلبي، عد النبض، ثم كتب الوصفة، وقبل أن أدخل عليه كنت قد دفعت للممرضة خمسمئة ليرة، وفي غرفة الانتظار أكثر من عشرين مريضاً، ينتظر كل منهم دوره. وهذا العجوز البائس لا يمكن أن يحصل في يومه خمسمئة ليرة، سأقف أمامه على الميزان، وأعطيه عشر ليرات بل عشرين، ثم أسأله عن أقرب صيدلية.

أسأله، فينهض، يتكلم ببطء، يمسك بيدي، يمشي إلى الأمام بضع خطوات، تلحق به القطة الصغيرة، وهي تموء بصوت خافت لا يكاد يسمع، تتمسح بقدميه، يدلني بهدوء وبالتفصيل، بصوته الخافت المبحوح، وهو يقول:

ـ هناك في الطرف المقابل، بعد أن تجتاز الشارع تجد صيدلية المحبة، هي صيدلية ولدي أحمد، وهنا في هذا المبنى، من حيث جئت، في الدور الثالث عيادة ولدي حامد، وعندي ولد ثالث في أمريكا، طبيب جراح، مختص بالقلب.

44. من غير تأخير

موعدي معه في العاشرة، الطريق إليه بالحافلة يستغرق عشرين دقيقة، الحافلة تصل إلى الموقف أمام شقتي في التاسعة وخمس وعشرين دقيقة، أصل بذلك قبل الموعد بعشرين دقيقة، لا بأس سآخذ الحافلة التالية التي تصل في التاسعة وخمس وثلاثين دقيقة، أتناول فطوري، أحمل جريدتي، في التاسعة والنصف أنزل، بعد ثلاث دقائق أكون في الموقف، هناك سيدة عجوز، ورجلان، وسيدة أخرى أمامها عربة طفل، وينضم إلينا شاب، وألتفت، وإذا الحافلة قادمة، أنظر إلى الساعة الرقمية المعلقة فوق الموقف، وإذا هي التاسعة وأربع وثلاثون دقيقة، في التاسعة وخمس وثلاثين دقيقة تماماً تقف الحافلة في الموقف، وتفتح أبوابها

الثلاثة، الأمامي والخلفي، والأوسط، وهو عريض، تصعد من خلاله السيدة وهي تدفع عربة الطفل، وأصعد بعد العجوز والرجلين، ويصعد في إثري الشاب، أبرز تذكرتي للسائق، وأدخل، وتنطلق الحافلة، هل أخلع حذائي وأقعد على الأرض؟ النظافة لا يمكن أن توصف، والمقاعد من مخمل ناعم، أتخذ موضعي إلى جوار النافذة، على مساند المقاعد صحف مطوية، معظم المقاعد شاغرة، الركاب يتصفحون الجرائد، والحافلة تتهادى، كأنني في الجنة.

هل أقرأ الجريدة أم هل أتأمل شوارع استوكهولم؟

45. توقيت

أرفع سماعة الهاتف، وإذا المشرف على الدورة، يرحب بي، ويعلمني أن السيارة ستكون في انتظاري عند تمام السابعة والنصف، لأكون في المعهد عند الثامنة إلا خمس دقائق، ثم يضيف:

ـ أرجو أن تدخل إلى القاعة في تمام الثامنة، وألا تنهي المحاضرة إلا عند التاسعة والنصف تماماً.

أصمت قليلاً، ثم أقول له:

ـ اعذرني، مثل هذا التوجيه قد يضطرني إلى العودة إلى الوطن ولو على نفقتي، فأنا ملتزم بالوقت في بلدي، ولا ضرورة أبداً للتذكير.

يجيبني:

ـ أنا آسف، وأرجو أن تعذرني، معظم الأساتذة العرب الذين دعوناهم قبلك هنا إلى استوكهولم كانوا يدخلون بعد عشر دقائق ويخرجون قبل ربع ساعة.

46. خيارات حرة

أقول لصاحبي، والمترو يتهادى بنا:

ـ انظر إلى تلك الشقراء، أريد التعرف إليها.

يجيبني ببساطة ومن غير تردد :

ـ تعرف إلى من شئت، لا أحد يمنعك.

ـ لا أعرف كيف أبدأ، هل أدوس على قدمها وأعتذر بسبب الزحام، أو أدفعها في كتفها فتقع الكتب من يدها، فأعتذر وأميل معها إلى الأرض لأساعدها على حمل كتبها، ويكون التعارف؟

يضحك صاحبي، ويقول :

ـ هذه هي أساليب التعارف في الأفلام المصرية القديمة، وهي لا تنفع هنا، اذهب إليها وتعرف إليها مباشرة.

ـ بهذه السهولة؟

ـ طبعاً بهذه السهولة.

ويصمت قليلاً ثم يضيف:

ـ ولكن يجب أن تحدد لها ما تريد منها، هل تريد تناول العشاء معها في مطعم على نفقتك أو كل منكم على نفقته الخاصة، أو احتساء كأس والرقص، أو ترافقك في حضور حفلة رسمية أو تكون مجرد رفيقة سفر معك إلى الريف بسيارتك، أو مضاجعتها في منزلك أو في منزلها أو في غرفة مستأجرة، يجب أن تكون واضحاً ومباشراً، وهي التي ستقرر، لا يمكن أن تفرض عليها أنت رغبتك، أنت هنا في استوكهولم.

47. آخر صرخة

تلفت نظري الألوان في واجهات المحلات، كل محلات الألبسة تعرض ثياباً من لون الليلكي الفاتح، أقول لصاحبي:

ـ شيء مدهش، هذا اللون هو آخر صرخة في عالم الأزياء عندنا هناك في حلب، وأمس أنا قادم منها، كل المحلات عندنا تعرضه.

ـ هل تريد لنا نحن هنا في استوكهولم أن نكون متخلفين، نحن أيضاً نجاري آخر صرخة في عالم الأزياء والألوان، ولعلنا نحن هنا أخذناها عنكم هناك.

48. ممنوع التصوير

أقول لصاحبي: أعجبني هذا المبنى، فهل من المسموح تصويره، فيقول لي: هذا مبنى القصر البلدي، يعود إلى القرن الثامن عشر، صوره، وأسأله: وما هذا المبنى؟ يقول: هذا هو المتحف الوطني، صوره إذا شئت، ثم أسأله: وهل أصور هذا المبنى، يجيبني: هذا مشفى متخصص بعلاج الحروق، صوره، صور كل ما تشاء، لماذا تسألني، هل هذا مسموح أو غير مسموح، أجيبه: كنت في أحد الأقطار العربية، وتعرفني مهتماً بتاريخ العمارة، وحيثما ذهبت التقطت صوراً للأبنية والعمارات المتميزة، ولفت نظري مبنى فخم جميل، وإذا هو مشفى، فوقفت أصوره، وإذا بسيارة تقف أمامي، وينزل منها رجل يدعوني إلى مرافقته، وأدركت على الفور أنه رجل أمن، فعرفته إلى نفسي، وأبرزت له هوية أستاذ جامعي وبطاقتي الصحفية وجواز سفري، وقلت له: أنا من بلد شقيق، وأمس كان رئيسنا في زيارة لرئيسكم، والعلاقات بيننا جيدة، أجابني: يمكن أن تقول هذا في المركز، تفضل معي إلى السيارة، وفي المركز كان الضابط المسؤول على قدر كبير من الثقافة والتهذيب، وقد ..

قاطعني صاحبي، قال:

ـ أنت الآن في استوكهولم، صوِّر كل ما تريد.

49. الأرصفة

الشارع واسع وعريض وممتد، الأشجار تنهض على جانبيه، الأرصفة عريضة، والمشاة يملؤون الشارع جيئة وذهاباً، لا سيارة ولا حافلة، الشارع كله للمشاة، يمشون أحراراً مطمئنين، يذهبون يميناً يأتون شمالاً، ما من خوف ولا حذر. وعلى الرصيفين تنتشر مقاهي الرصيف، كراس من خيزران، واسعة عريضة مريحة جداً، تلتف حول طاولات مستديرة، تغطيها ملاءات بيضاء نظيفة، وتظللها مظلات ملونة جميلة، والنادلات الصبايا يطفن على القوم بالكؤوس من أشربة شتى.

يقول لي صاحبي:

ـ ما رأيك بفنجان قهوة؟

ـ فكرة رائعة.

وننثني إلى إحدى الطاولات، ويستقر صاحبي على أحد الكراسي، وأهم بالقعود في كرسي مقابل.

على الرصيف في بلدي رأيته، يركض، وهو الشيخ العجوز، حاملاً قطعة قماش لف بها مجموعة جوارب، كان قد بسطها على الرصيف، فاجأه شرطي البلدية، فحملها وركض، وشرطي البلدية يشتمه، ويجري وراءه، وشرطي آخر يمشي وراءهما متثاقلاً، يجمع ما يتساقط من جوارب.

أقول لصاحبي:

ـ هيا انهض

يسألني مدهوشاً:

ـ ما بك؟ هذا أجمل مقهى، سترى هنا أجمل صبايا استوكهولم.

50. نزهة مع كلب

أقف أنا وصاحبي على الجسر نتأمل المرج الأخضر، هو مرج أخضر زاه، يتألق تحت صفرة الشمس المائلة نحو الغروب، والمرج ينداح فوق هضاب وينبسط على وهاد تتثنى مثل خصر أهيف رشيق، ومن الهضبة تنحدر فتاة رشيقة تعدو وراء كلب أبيض يتقافز كالفراشة، ثم أراها تنحني على المرج وتلتقط شيئاً وقد وضعت يدها داخل قفاز أبيض شفاف، ثم تضع ما التقطت داخل كيس، أسأل صاحبي:

ـ ماذا تلتقط هذه الصبية؟ هل هناك فطر؟

يرد صاحبي وهو يضحك:

ـ هي تلتقط براز الكلب.

أضحك، أضحك كثيراً، وأعلق:

ـ ولماذا لا تتركه سماداً للمرج، أوليس للحديقة حراس وعمال تنظيف، أو هل يعاقبها القانون على براز كلبها في الحديقة؟

ويرد صاحبي:

ـ هناك العشرات من عمال النظافة، ولكن لا ترى أحداً يرمي أي شيء، ولو بقية سيكارة، فما ظنك في العلب الفارغة أو المناديل الورقية، ولا أحد يترك براز كلبه، الزائر يحرص على نظافة

الحديقة من تلقاء نفسه، القانون لا يعاقب على براز كلب، ولكن لا ترى أحداً هنا في استوكهولم يترك براز كلبه، حتى في الشارع.

51. الدراجة

بعد عودتي من السفر يقول لي ولدي:

ـ وعدتني يا أبي أن تشتري لي دراجة بعد عودتك من السفر.

كنت قد وعدت ولدي مرات كثيرة بشراء دراجة، وعدته إذا انتقل إلى الإعدادية، ووعدته إذا نال الشهادة، ووعدته بشرائها في عيد ميلاده الخامس عشر، ثم وعدته بشرائها بعد عودتي من السفر.

وعود كثيرة وعدته إياها، ويبدو أنني لن أفي بالوعد أبداً، ولا سيما بعد عودتي من السفر، من قبل وعدني أبي، ولم يف بوعده، كان يخشى عليَّ أن أقع فتكسر رجلي، أو تدوسني سيارة، فابن خالتي اشترى له أبوه دراجة، وفي اليوم التالي وقع وانكسرت يده، وابن عمتي داسته سيارة هو ودراجته، وابن الجيران ضرب ولداً بدراجته فكسر رجله ودفع أبوه نفقات العلاج وكاد الولد يسجن، وأنا الولد الوحيد وأبي لا يريد أن يصيبني مكروه، وإلى اليوم وقد بلغت الخمسين ما أزال أحلم بدراجة، ولو اشتريتها لولدي لركبتها وقدتها قبله، ولكن لن أشتري له أبداً دراجة ولا سيما بعد ما رأيته في السفر.

أقول له :

ـ اسمع يا ولدي، هناك رأيت دراجات كثيرة، رأيت عجائز يركبون الدراجات، طبعاً عدا الصبايا والشباب.

فرح الولد ـ وقد أصبح شاباً ـ وكاد يصفق، وصاح:

ـ إذن ستشتري لي دراجة يا أبي.

قلت له:

ـ هناك يا ولدي ممر في وسط الرصيف بعرض متر ونصف المتر مدهون بالأسود هو خاص بالدراجات، فإذا أصبحت الأرصفة عندنا مثل الأرصفة هناك في استوكهولم اشتريت دراجتين، بدلا من دراجة، واحدة لك وأخرى لي، ولكن مؤكد أني لن أشتري أي دراجة.

52. المدير

في اليوم الثاني لوصولي إلى استوكهولم اصطحبتني رئيسة قسم اللغة العربية في نحو الثانية عشرة ظهراً في زيارة إلى إدارة معهد تعليم اللغات، حيث دعيت لإلقاء محاضرات في مدرسي المعهد، المبنى شقة في طابق عادي، يمتاز بالهدوء والنظافة، غرفه صغيرة، زرنا معاونة رئيسة قسم اللغة العربية، ثم أمينة السر، ثم المحاسب، ثم رئيس المحفوظات، ومررنا بغرفة زجاجية متطاولة تتوسط الشقة، فيها مقاعد عريضة، ذات ألوان هادئة، وفيها خزانة لكؤوس الشاي والقهوة وثلاجة وجهاز إعداد الشاي والقهوة، وثمة رجل متقدم في العمر واقف وراء جهاز إعداد الشاي والقهوة، وهو منهمك في ترتيب الكؤوس والفناجين وإعداد أطباق الحلويات وصفها على مائدة في الوسط، وأنا أرى هذا كله من وراء الزجاج المحيط بالغرفة من كل جهة، ومن غير أن أسألها قالت:

ـ هذه هي غرفة الاستراحة لجميع الموظفين، بعد عشر دقائق نتناول فيها جميعاً القهوة والشاي والحلويات، وكل يوم يقوم أحد الموظفين بإعداد كل شيء وتجهيز المائدة، ومن المؤسف أننا لن نستطيع الآن زيارة المدير، ولكنك ستلتقيه معنا في الاستراحة، هو مشغول الآن، اليوم هو دوره في إعداد الشاي والقهوة وتوزيع أطباق الحلوى.

53. مرة في العمر

مصادفة ألتقي به في أحد الأسواق، يسرع كل منا إلى الآخر، يضمنا معاً عناق حار، هو هنا يعمل منذ بضع سنين، هو ابن بلدي، يدعوني بإلحاح إلى زيارته، والنزول في ضيافته، أؤكد له أني سأغادر إلى الوطن بعد بضع ساعات، وقد نزلت إلى السوق لشراء مزيد من الهدايا، يقدم لي بطاقة تحمل اسمه وعنوانه ورقم هاتفه، ويقول لي:

ـ في الزيارة القادمة تتصل بي فور وصولك إلى استوكهولم.

أتناول منه البطاقة أضعها في محفظتي، يلح علي سائلاً:

ـ كم مرة تزور استوكهولم في الشهر؟

أضحك، أجيبه:

ـ مرة في العمر.

54. لا بد من الزيارة

خمسة أشهر مرت أو ستة، وهي تزورني كل صباح في المكتب. أقدم لها فنجان قهوة، تقرأ عليَّ أشعارها، تبثني شكواها، الزمان قاس، الحياة صعبة، الغدر كثير، الخيانة شائعة، تتذمر وتضجر، تقرأ علي محاولات شعرية مقبولة، هي أشبه بمذكرات شخصية، تحدثني عن شاب أحبته، تعلقت به، ثم سافر، تخلى عنها، لم يعدها بشيء، لا يمكن أن تفكر في غيره، هي ليست بحاجة إلى الزوج، هكذا تؤكد لي، راتبها يكفيها، لها رصيد جيد في المصرف، ومشتركة في مشروع سكني، سوف تتسلم شقتها بعد خمسة أعوام، لا أحد تشكو إليه غيري، والدها متوفى منذ عشر سنين، أمها توفيت منذ عام، إخوتها ثلاثة، ولكن كل منهم مستقر في بيته، ومشغول بحياته، هي وحيدة، وأنا بمنزلة والدها، هكذا تؤكد لي، ترتاح إليَّ، تشكرني لأني أصغي إليها، تسعد لسماعي أشعارها التي لا تقرؤها لأحد سواي.

اليوم تأتيني وهي سعيدة كل السعادة، عاد إليها فتى أحلامها، تنقطع عني يومين أو ثلاثة، ثم تأتيني شاكية باكية، تقرأ قصيدة، تؤكد فيها عزمها على الانتحار، تعترف بأن فتى أحلامها قد نال منها كل ما يريد، ثم سافر، تعتذر عن إثقالها علي بالزيارة في المكتب، تؤكد أنه مكان عمل، تؤكد أني بمنزلة الوالد، هي لا ترتاح إلا إلى الرجل المتقدم في العمر، صاحب العقل والخبرة، تؤكد أن ربع القرن الذي يفصل بيننا يجعلها أقرب مني، هي في الحقيقة ثلاثون عاماً، وليست ربع قرن، هي في الخامسة والعشرين، وأنا في الخامسة والخمسين، ثم تنقطع عن زيارتي أسبوعين أو ثلاثة، ثم تدخل علي ذات يوم فجأة، عند نهاية الدوام، وهي في أقصى حالات السعادة، ترتدي ثوباً فاتح اللون، شعرها أشقر، عيناها زرقاوان، تضحك، كأنها ترقص، تعتذر عن انقطاعها عن الزيارة، تؤكد أنها لا يمكن أن تنساني، لا يمكن أن تتخلى عني، تؤكد أننا سنبقى معاً طول العمر، ثم تخبرني أنها استلمت شقتها في المشروع السكني، وأثثتها وفرشتها، أقاطعها سائلاً:

ـ ولكن أخبرتني أنك لن تستلميها إلا بعد خمس سنين؟

ويأتي الجواب على الفور:

ـ في الواقع لم أستلمها، إنما بعت اشتراكي في المشروع، واشتريت شقة جاهزة، مفروشة، ويسرني أن نلتقي في شقتي لأقرأ عليك أشعاري بدلاً من اللقاء هنا في المكتب.

ونظرت في ساعة يدها، ثم قالت:

ـ انتهى الدوام، لنذهب الآن معاً .

أقول لها:

ـ ولكن لي عتب عليك.

ـ أنا أقبل عتابك، قل ما تريد.

ـ كنت أتمنى أن تشاوريني؟.

ـ صدقني كنت معي في كل ما أقدمت عليه، ستجد في الشقة كل ما يرضيك ويريحك، كل شيء اخترته وفق ذوقك، خلال الأشهر القليلة عرفت كل ما يعجبك وكل ما لا يعجبك.

ـ ولكن، لا تقدم الفتاة على أمر إلا بعد مشاورة والدها، ألم تقولي من قبل إني أشبه والدك كثيراً، وإني بمنزلة الوالد؟

تصمت، يكسو وجهها الوجوم، أتابع كلامي:

ـ على كل حال، الوالد يفرح لأولاده، ولابد من أن أقدم إلى ابنتي هدية مناسبة، ولا بد من زيارتها، ولكن في الوقت المناسب، وأنا الآن مرتبط باجتماع مع المدير العام.

خرجت، ولم تعد.

55. هل هو أنا؟

كان ذلك قبل ثلاثين عاماً، كنت في رحلة مع الصحب أيام الصبا، مشينا ساعات وساعات، تسلقنا جبلاً، هبطنا وادياً، اجتزنا نهراً، ثم عدنا فتسلقنا جبلاً، لنبلغ الطرف الآخر، وعندما بلغنا القمة، زلت قدمي.

لست أذكر، لعلي هويت إلى الوادي، وسقطت ومت، أو لعل الأصدقاء أمسكوا بيدي، وشدوني، ونجوت، هل هو أنا ذلك الذي نجا؟ أم هل أنا ذاك الذي لعله سقط هناك ومات؟ هل أنا الآن حي أو ميت؟

56. خرج..ولم يعد

صبت كأسين، ناولته إحداهما، رفعت الأخرى، وإذا صوت المؤذن يعلو، وضعت الكأس، ذكرت الله، واستغفرته، دهش، نظر إليها متعجباً، ومن غير أن يسأل قالت:

ـ وهل تظن أني لا أعرف الله، أنا أعرفه، ولكني ابتليت، أسأل الله المغفرة، وأنتظر ساعة التوبة.

وضع هو الآخر الكأس، نهض، ارتدى ثيابه، خرج، ولم يعد.

57. دعوة إلى الحوار

انتقل بنا الحديث، ونحن نرتشف القهوة، إلى نقطة، سرعان ما ظهر اختلافنا فيها واضحاً. نهض على الفور من مقعده أمامي، ومضى إلى طاولته، قعد وراءها، بسط يديه على المكتب، مدهما نحوي، قال:

ـ تفضل، لنتحاور، هات حججك وبراهينك، وأنا سأدلي بحججي وبراهيني، إما أن تقنعني وإما أن أقنعك.

بين يديه تنتصب على المكتب في مواجهتي لوحة مزخرفة كتب عليها بالخط الكوفي اسمه وتحته كتب: المدير العام.

58. معلمي وليس أبي

قال سائق السيرفيس لولده:

ـ يا ولدي، هذا هو أول يوم من أيام العطلة الانتصافية، عندك خمسة عشر يوماً، ستعمل فيها معي، تجمع الأجرة من الركاب، يعطيك الراكب خمس ليرات، لا ترد له شيئاً، سيطلب هو منك أن ترد له ليرتين، تقول له: ليس معي فراطة، سيركب معنا في اليوم على الأقل ثلاثمئة راكب، هذا يعني أنك ستوفر في اليوم ستمئة ليرة، لا تقل لهم إني أبوك، لا تناديني: أبي، قل: معلمي، هل فهمت؟

59. تكرار

هي ليست أفضل من زوجتي، ولا أجمل منها، ولا أكثر إثارة، أعرف أنها تخدعني، وأنها ليست مخلصة لي، وأني لست وحدي من يزورها، ولكن لا أعرف لماذا أجد نفسي منساقاً إلى لقائها، لا أعرف ما الذي تمنحني إياه، ثمة سر، شيء غريب، لعلها مشيئة الله. هكذا يحدث نفسه، وسيارة الأجرة تنطلق به، وهو ماض إلى زيارتها، سائق السيارة يضع في المسجل شريطاً، القارئ يتلو آيات من القرآن الكريم. يستشعر الإيمان، يستغفر ربه، يحس بخطئه، يعرف أنه مذنب، لا بأس، هكذا يحدث نفسه، فلأقابل ربي ببعض الذنوب، هو رب غفور رحيم، على كل حال، هذه آخر مرة، سأتوب بعد ذلك، سأستغفر ربي، ولن أعود إلى لقائها، أعرف أن ربي لا يريد لي ذلك، وأن الشيطان هو الذي يسوقني، ولكن هذه آخر مرة.

في زيارة تالية يكرر الحديث نفسه وهو ماض في السيارة إلى لقائها.

60. مقابلة

مقابلة صغيرة في التلفاز لم تستغرق سوى ثلاث دقائق، وانهمرت عليه بعدها الاتصالات الهاتفية من الأهل والأقارب والأصدقاء، وفي صباح اليوم التالي هنأه الزملاء في العمل وباركوا له.

كان قد طبع من قبل عشرين كتاباً، ونشر مئات المقالات، ولم يتصل به أحد.

61. أنماط

قال الأول:

ـ أنا هلكت، زوجتي خربت دياري، لا أستطيع دفع ثمن الصابون ومواد التنظيف والتطهير والتعقيم، كل يوم تغسل الأرض بالماء والصابون، تنظف الجدران، تمسح الزجاج، تطهر مقابض الأبواب بالمواد المعقمة، وكل يوم لا بد من الخصام...

قال الثاني:

ـ وأنا أكاد أصل مع زوجتي إلى الطلاق، لا تغسل الأرض غير مرة في الشهرين أو الثلاثة، هي لا تمسح الجدران ولا النوافذ غير

مرة في السنة، ولا تفكر على الإطلاق في غسل مقابض الأبواب أو مسحها، أما الصحون والملاعق فتتركها في المجلى، ولا تغسلها إلا بعد أن تتراكم ليوم أو يومين، قل لي ما ذا أفعل؟

قال الثالث:

ـ أنا لا أعاني من أي مشكلة، زوجتي موظفة، وعندنا في البيت خادمة، تقوم بالأعمال كلها من غير تقصير.

62. الطفل والعجوز والمرأة

قال البائع لابنه:

ـ إذا جاءك طفل أو شيخ عجوز فناوله سطل لبن من الصف الأول، لبن هذا الصف مر عليه خمسة أيام، وهو مائل إلى الحموضة، وإذا جاءك رجل فناوله سطل لبن من هذا الصف الأخير، لبنه جديد، وإذا جاءتك امرأة فلا تبعها، قل لها : لا أعرف، ارجعي بعد قليل، أنا ذاهب إلى المسجد لأؤدي صلاة العصر.

63. تعليقات

انتهت القصة، وبدأت التعليقات: قصة رائعة، تنتمي إلى الحداثة، بل تمثل ما بعد الحداثة، لا أجمل منها ولا أروع، لا شك أنها قفزة نوعية، تأثيرها لا ينقطع، لا يمكن أن ننساها، كل شيء فيها مختلف متميز. وفي غرفة مدير المركز الثقافي مع ارتشاف القهوة كانت التعليقات أكثر حرارة. كانت تدرك أن المقصود بالتعليقات هي، لا قصتها.

64. الفندق

يرجع إلى الفندق، فيجد كل شيء جاهزاً، الأرض مسحت، الفراش رتبت، الثياب غسلت وكويت وطويت، الكتب أعيدت إلى موضعها على الرفوف، الطاولة أعدت للكتابة، الطعام يتناوله في المطعم، أو يطلبه إلى غرفته. تخلص من مسؤولية البيت والزوجة والأولاد، لا ينهض صباحاً ليشتري الخبز، أو يوصل الأولاد إلى المدرسة، أو يمضي إلى السوق ليشتري اللحم والفاكهة، طالما مل من مسؤليات الأولاد وضجر، وهو اليوم

متفرغ للبحث والتأليف والكتابة، لا شغل سوى الكتابة، كل شيء يصل إليه فور طلبه.

ويمر أسبوع، ويمر أسبوعان، تمر ثلاثة أسابيع، ينقضي الشهر، هل يعقل أن يستمر على هذه الحال؟ لا يتكلف أي شيء، يحن إلى السوق والعالم والناس، يشتاق إلى الضجيج والزحام، هل يعقل أن يمضي خمسة أشهر على هذا المنوال؟ وهي المدة التي ما تزال أمامه، وعليه أن يمضيها في بلد الإيفاد متفرغاً للبحث؟

في اليوم التالي يمضي إلى حي شعبي، يستأجر شقة قريبة من السوق، في وسط الضجيج والصخب والزحام، ويعود إلى تحمل الأعباء والمسؤوليات والهموم والمشكلات اليومية.

65. مع الأحفاد

كان كل ما يخشاه هو التقاعد، ولكن أصبح كل ما يفرح به اليوم هو التقاعد.

أحفاده من حوله، هذا في الصف الرابع الابتدائي، وذاك في الصف الثاني الثانوي، والثالث يستعد لامتحان الشهادة الثانوية، وهو لا يكاد يجد ساعة من فراغ، يعلم هذا، ويداعب ذاك، ويلعب في الشطرنج مع الثالث.

تمنى لو أنه تقاعد قبل عشر سنين، أدرك أن أجمل الأوقات هي الأوقات التي كان يجب أن يمضيها مع زوجته والأولاد.

66. مذكرة العام الجديد

وقف أمام المحل، هم بالدخول لشراء مذكرة العام الجديد، رآها في واجهة المحل فأعجب بها، صغيرة ملونة، يمكن أن يحملها في جيب معطفه حيثما ذهب، ولكنه تردد، أجَّل شراءها، فما يزال أمامه عشرون يوماً لبدء العام الجديد. ودخل البيت، فوجد حفيده قد اشترى له مذكرة، وقدمها له هدية، هي من النوع نفسه، واللون نفسه.

67. الكومبيوتر لا يخطئ

حقيبة السفر على الأرض إلى جواري تحت المائدة، وقد حثثنا النادل على التعجيل بالطعام.

تتقدم منا بخطا هادئة، ونحن نتناول الطعام، عيناها واسعتان سوداوان مكحولتان، نظرتها متفحصة، فيها سحر وذكاء وغموض، بين يديها وريقات، تضع واحدة منها أمامي على الطاولة. الورقة تتضمن دعوة إلى معرفة المستقبل بوساطة الحاسوب، ويكفي كتابة الاسم وتاريخ الميلاد، ووضع مئة ليرة. تجاوزت الخمسين ولم أصدق شيئاً من هذا، ولم أمارسه، ولو على سبيل التسلية، ولكن لست أدري، بطريقة لا شعورية تمتد يدي إلى القلم وأكتب اسمي وتاريخ ولادتي، وأضع مئة ليرة فوق الورقة، تأخذ الورقة، تترك مئة الليرة على الطاولة، وتمضي. ترجع بعد هنيهة، تقعد بيننا، تبسط على المائدة ورقة مطبوعة على الحاسوب، فيها رموز وإشارات، تتكلم بصوت فيه سحر وغرابة، عيناها تنضحان ذكاء وقوة، وهي تقول:

ـ أنت سعيد الحظ، وأمامك مستقبل جديد، ستبدأ حياة جديدة، وهذه الصبية التي أمامك هي مصدر سعادتك، ستريح بالك، وستنجب إن شاء الله البنين والبنات وتعمر الديار، أنت شقيت في حياتك وتعبت، ولكن هذه الصبية ستجعلك تنسى الماضي والتعب، وتبدأ حياة جديدة، وهناك طريق للسفر وباب لرزق جديد.

أضحك، أضحك طويلاً، وأقول لها:

ـ هذه ابنتي، وجئنا هنا إلى العاصمة كي تسجل في الجامعة.

ترد بصوت واثق، وهي ترمق الحقيبة تحت المائدة بنظرة مؤكدة:

ـ الكومبيوتر لا يكذب، وأنا قلت: أمامكم طريق ورزق، وهذا صحيح، فأنت ستسافر وترجع إلى بلدك، وقلت أمامك مستقبل، وهذه البنت ستدخل الجامعة وتتوظف وتريحك، وهي التي سوف تتزوج وتنجب البنين والبنات وتملأ الديار، الكومبيوتر لا يكذب.

وتنهض وهي تقول بلهجة واثقة فيها حدة وغضب:

ـ مئة الليرة مردودة عليك، وخذ هذه الورقة للذكرى، هذا ما هو سحر وتنجيم، هذا علم، الكومبيوتر لا يكذب.

وتمضي غاضبة، أنهض في إثرها، وأنا ألح عليها بقبول مئة الليرة، فتلتفت إلي لتقول:

ـ الأهم، أجبني: صدق الكومبيوتر أو لا؟

وأرد ضاحكاً:

ـ الكومبيوتر لا يخطئ.

تتناول مني مئة الليرة، ثم تقول:

ـ إذن هات مئة ثانية.

68. تقرير

يقعد وراء طاولته، في مكتبه بالجريدة، يستل بضع أوراق من الدرج، ويشرع في كتابة التقرير، يسند يده إلى رأسه، يقرع الجرس، يطلب من الآذن فنجان قهوة، يطلب قلماً جديداً، يمزق الأوراق، يستل من الدرج غيرها، أخيراً يستقر على الصيغة. يقرؤها بصوت عال:

ـ وصلت الفرقة المسرحية قادمة من العاصمة، استقبلت بترحيب كبير، حضر العرض كبار المسؤولين في المحافظة، وغص المسرح بالحضور، وقد لقي العرض ترحيباً كبيراً، وفي نهاية العرض التهبت الأكف بالتصفيق، وألقى الجمهور الورود على الممثلين، ثم دار حوار مفتوح بين المخرج والممثلين من جهة والجمهور من جهة أخرى، وألح الجمهور على المخرج أن يبقى في المحافظة ليقدم عرضاً آخر، ولكنه اعتذر لأنه يقوم مع فرقته بجولة على المحافظات.

في صباح اليوم التالي دهش أعضاء الفرقة كما دهش جمهور المحافظة وهم يقرؤون الخبر، لأن الفرقة لم تصل إلى المحافظة، فقد تم تأجيل العرض.

69. رواية لا قصة قصيرة

تسرع زوجتي والأولاد إلى استقبالي ومعانقتي، يسألونني عن الهدايا، فأعتذر إليهم وأسرع إلى غرفتي، أقعد وراء الحاسوب، يدرك الجميع أن قصة قد ولدت وأنا أريد كتابتها قبل نسيانها. ثم أدعو زوجتي كالعادة إلى قراءة القصة، تقرؤها مدهوشة وتسأل:

ـ هل حدثت معك؟

ـ لا

ـ من ألهمك بها؟

ـ الراكب إلى جواري في الحافلة يتلقى اتصالات هاتفية عبر الخلوي، وبين حين وآخر أسمع رنين هاتف هنا وهناك، وألتقط عشرات الأحاديث من أربعين راكباً، كل راكب يوحي حديثه في الخلوي بقصة، يمكنني أن أكتب رواية لا قصة قصيرة.

70. مصير الكتب

أقول لصديقي العائد من الإعارة:

ـ أمضيت خمس سنوات في بلد الإعارة، لا شك أنك جئت بمجموعة من الكتب القيمة والنادرة؟.

يجيبني:

ـ اقتنيت مكتبة كاملة، وحزمتها في ثلاثة صناديق، ولكن في المطار كانت معي حقائب كثيرة، مملوءة بالثياب والأحذية والهدايا للأولاد، وكانت رسوم الوزن الزائد عالية، لذلك تركت صناديق الكتب في أرض المطار.

71. كيف يعيش ؟

أدخل المكتب، فينهض لاستقبالي، وجهه معروف عندي، لا شك أني أعرفه، من هو؟ تغيرت ملامحه كثيراً، ولا شك أن ملامحي قد تغيرت، ولكني عرفته، كما أنه عرفني أيضاً، هو زميل الدراسة في المرحلة الجامعية، ونتعانق، ويدعوني إلى الجلوس على أريكة طويلة، ويقعد إلى جواري.

مكتب فخم، كأنه مكتب وزير، طاولة بطول مترين، عليها ثلاثة هواتف، ووراءها كرسي دوار، وعلى الجدار وراءه علقت لوحة عريضة تحمل الآية الكريمة: "هذا من فضل ربي"، الجدران المقابلة مزينة بخرائط ومخططات ومشروعات هندسية، وعلى الطاولة لوحة نحاسية مذهبة تحمل اسمه بالخط الكوفي. وبعد تكرار الترحيب وتكرار الأسئلة عن الصحة والأسرة والأولاد، أخذ يتكلم:

ـ أعرف، أنت ما زلت تعمل في التدريس، أنا ولله الحمد تركته بعد ثلاثة أعوام من تعييني مدرساً، أخذت بالعمل في تجارة البناء، بدأت من مشروع صغير، وانتهيت إلى مشاريع ضخمة، من بناء مخالف في حي عشوائي، إلى أفخم بناء في أرقى حي، وأولادي كلهم ساروا في طريقي، ثم تركت لهم العمل، اعتبرت نفسي تقاعدت، هذا المكتب للتسلية وتمضية الوقت، عندي هنا ثلاثة موظفين يسيرون الأعمال..

أقاطعه:

ـ كنت أبحث عن شقة لولدي، والمصادفة قادتني إلى هذا المكتب.

ـ أنصح لك أن تبحث عن شقة لولدك في الحي الشرقي، ولاسيما في المنطقة العشوائية، الأبنية هناك كلها مخالفة وأسعارها مقبولة.

ـ أريد تكوين فكرة عن الأسعار.

ـ لست بحاجة إلى أي فكرة، لا تتعب رأسك، الأسعار فوق ما تتصور، لا يمكن أن تشتري هنا قطعة حجر في سور حديقة.

أحس بالاستياء، أنهض، ينهض على الفور، وهو يقول:

ـ ولكن لم نتحدث عن التدريس والتعليم والطلاب، تفضل اقعد حتى

أمد يدي لأصافحه مودعاً، يشد على يدي، وهو يقول:

ـ أود سؤالك عن الرواتب كيف هي؟

ـ الحمد لله

أِشكره على مشاعره الحارة، وفي باب المكتب أسحب يدي من يده، وهو يقول:

ـ أنا لا أعرف كيف يعيش الموظف؟ كان الله في عونكم.

72. في الموقف الرسمي

الشيخ العجوز ينهض من مقعده، يجر الثمانين جراً، يزاحم بالمنكب البالي الزحام داخل الحافلة، يصل إلى السائق، يقول له:

ـ أرجوك يا ولدي أنزلني قبل الموقف، هنا أمام هذا المصرف.

السائق يهدر بصوت خشن جاف:

ـ الموقف بعد متئي متر، ولا أستطيع إنزالك هنا.

ـ ولكني شيخ عجوز ولا أستطيع المشي كما ترى.

ـ من الأفضل لك أن تقعد في بيتك.

ـ والله لا أخرج من البيت إلا في الشهر مرة، لأقبض راتبي التقاعدي.

ـ ياعم القانون هو القانون، أنا موظف في الدولة، والنظام يفرض عليَّ الوقوف في الموقف لا قبله ولا بعده، هل تريد مني مخالفة القانون أو النظام؟.

الشيخ العجوز يقول للسائق:

ـ اعتبرني مثل والدك، لو كان والدك معك وطلب منك....

السائق يقاطعه:

ـ والدي مات وهو شاب، وما كبر ولا خرف ولا عجز.

أحد الركاب يتدخل فيقول للشيخ العجوز:

ـ خذ سيارة أجرة، فينزلك السائق حيث تريد.

الشيخ العجوز يلتفت إلى الراكب ويقول له:

ـ آه ،يا ولدي، كنت شاباً في مثل عمرك، وزرت باريس، بلد النظام والقانون، وصعدت في حافلة، وطلبت من السائق أن ينزلني في أقرب موقف من فندق فياب، ما زلت أذكر اسمه، نعم فندق فياب، ووقفت، فرجاني أن أقعد، وأن أكون مطمئناً، وبعد حين، أوقف الحافلة، في مفرق شارع فرعي، قبل الموقف الرسمي، وقال لي: في هذا الشارع الفرعي يقع فندق فياب، وأنا آسف جداً، كم كنت أتمنى لو دخلت في الشارع لأوصلك إلى الفندق، ولكنني لا أستطيع تغيير خط سيري.

الراكب يعلق:

ـ ولماذا رجعت إلى بلدك، لماذا لم تبق في باريس؟

السائق يعلق:

ـ هل صدقت هذه الحكاية المخترعة، الآن لفقها من عقله ، باريس هي أم النظام والقانون، ولا يعقل أن يخالف فيها السائق القانون.

وتصل الحافلة إلى الموقف، فينزل الشيخ العجوز.

وينطلق السائق، وبعد بضعة أمتار تشير إليه صبية واقفة على الرصيف، فيضع قدمه على المكابح، وتصطك العجلات، وتسحج الإسفلت، ويميل الركاب بعضهم على بعض، وتقف لأجلها الحافلة.

73. خصوصية

التقينا، نحن الموظفين في المؤسسة، وبدأنا نفكر؛ من سوف ننتخب، فقد انتهت ولاية المدير، وليس هناك سوى مرشحين اثنين، هما المعاون الأول، والمعاون الثاني، واستعرضنا ميزات كل منهما، وخلصنا إلى أنهما متساويان في الجدارة والكفاءة، ولكن ثمة فروق شخصية لا غير.

المعاون الأول لا يدخن، ولا يشرب القهوة، ونعرفه يوم كان واحداً من الموظفين معنا في مكتب واحد، يستيقظ باكراً، يجري تمارين الصباح، كما كان يحدثنا، ثم يستحم، يتناول طعام الإفطار في بيته، يغسل فمه وأسنانه، ويصل إلى المديرية مع بدء الدوام، وينشط فوراً للعمل، وطوال الدوام لا يدخن ولا يشرب القهوة ولا الشاي، يشرب الماء فقط، وهو دائماً حليق الذقن، أنيق، ما تأخر مرة، وما أخذ إجازة قط، ولكنه ليس ببخيل، دعانا أكثر من مرة إلى منزله، ورأينا جوده وكرمه عندما ذهبنا جميعاً في رحلة، وقد استمر على ما هو عليه بعد أن شغل منصب المعاون الأول للمدير، لا يسمح لأحد أن يدخن في مكتبه، يقدم القهوة والشاي لضيوفه، ولكنه لا يشربها، إذا ناب عن المدير في الاجتماع فلا يسمح لأحد بالتدخين.

المعاون الثاني يختلف عنه الاختلاف كله، يدخن ويشرب القهوة والشاي، وقد عرفناه أيضاً مذ كان موظفاً معنا في مكتب واحد، يأتي إلى العمل معتكر المزاج، ولا يعمل إلا بعد أن يحتسي فنجان قهوة ويدخن معه ثلاث سكائر، وكثيراً ما يطلب الطعام ليتناوله في المكتب، ولا يبالي، يتأخر

عن الدوام، وينصرف قبل الأوان، وقد استمر على ما هو عليه بعد تسلمه منصب المعاون الثاني للمدير، نزوره وندخن، بل يدعونا أحياناً إلى فطور في مكتبه.

وتم فرز الأصوات وأعلنت النتائج، حاز المعاون الأول على خمسة أصوات، من مجموع مئة صوت، وحاز المعاون الثاني على بقية الأصوات.

74. بلبل ..وبلابل

رأى أنثاه فجن جنونه، طار إليها، حط عليها، ترك التغريد، وأخذ يعمل معها على بناء عش ناعم، كم هو قوي؟! كم هو نشيط؟! وسرعان ما وضعت الأنثى البيض، ورقدت فوقه، أخذ يزقها الشراب والطعام، يقف إلى جوارها على طرف العش، يرقب البيضات الأربع، ينفش ريشه مزهواً، يرفع رأسه معتداً، يرقبها منتظراً خروج الأفراخ، وما هي إلا أيام، حتى خرجت واحداً إثر واحد، بنفسه كان يساعدها على كسر القشرة، يقف يتأملها، والفرح يغمره، هو يزق أنثاه بنفسه، كي تزق هي أفراخها، أحدها يدفع أخاه، يرميه خارج العش، بدأ الزغب بالسقوط، وبدأ الريش ينمو. أقف أتأمله، ومن كل جانب تحيط به قضبان القفص. أرجع إلى مكتبي، أفتح ديوان الشاعر عمر أبوريشة، أقرأ فيه قصيدة عنوانها " بلبل "، ومنها قوله:

أسقمه العيش على وفره
لما رآه ليس من كده

فعاف دنياه ولم يتخذ
عشّاً ولم يحمل سوى زهده
كأنه من طول ما مضه
من عبث الدهر ومن كيده
أبى عليه الكبر أن يورث
الأفراخ ذل القيد من بعده

وأقرأ مقدمة نثرية وضعها الشاعر لقصيدته، وهي قول الجاحظ: " البلبل لا ينسل في قفص"، وأسأل نفسي هل تختلف البلابل المعاصرة عن البلابل القديمة؟ أم هل هو قانون التطور والارتقاء؟.

75. العباءة والعصا

الغنمات منتشرة على امتداد السهل المنبسط، رؤوسها إلى الأرض، أسنانها الصغيرة منهمكة في اجتثاث أعشاب قصيرة ما كادت تنبت، وإليّاتها العجفاء المتيبسة المتدلية وراءها كالذيل لا تكاد تهتز، وهي غارقة في طلب مضغة العيش. فوق الهضبة غير العالية الراعي مضطجع، ملتف بعباءته البيضاء ذات الخطوط السوداء، يده تحت رأسه، وعصاه المعقوفة من الأعلى مرمية أمامه، وهو ناعم بدفء شمس نيسان، وغير بعيد عنه كلبه الأسود راقد، مسبل الأذنين، مغمض العينين. من وراء الهضبة يتسلل رجل، ينقض على الراعي، يطوقه بذراعه، يكمم فمه، يقيده بحبل، بسهولة وبساطة، يعريه من ثيابه، إلا سرواله، ثم يتلفع بعباءته، يحمل عصاه المعقوفة من الأعلى، وينحدر إلى أسفل الهضبة. يتنبه الكلب إلى الحركة، تمتد يد من تحت العباءة البيضاء ذات الخطوط السوداء، ترمي إليه بعظمة سوداء مكسورة نخرة لا مخ فيها، يسرع إليها، ومن غير أن يتشممها، يلتقطها، يحملها بين فكيه، يعض عليها بأنيابه، ثم يمشي منقاداً مسبل الأذنين وراء العباءة البيضاء ذات الخطوط السوداء التي تمتد منها يد تتوكأ على عصا الراعي المعقوفة من الأعلى. يتنبه الكبش الكبير إلى الحركة، يرفع رأسه، يحدق بعينيه، يرى العباءة البيضاء ذات الخطوط السوداء وهي تنحدر إلى السهل، ومنها تمتد يد تتوكأ على عصا الراعي المعقوفة من أعلى، فيرسل ثغاءه، ويحرك رأسه فيجلجل الجرس المعلق في عنقه، ثم يمشي في إثر العباءة ذات الخطوط السوداء التي تمتد منها يد تتوكأ على عصا الراعي المعقوفة من الأعلى. ترتفع الرؤوس في القطيع، ترى قرني الكبش الكبير، ومن خلالهما تبصر العباءة البيضاء ذات الخطوط السوداء، وعلى الفور يغير القطيع كله اتجاهه، يسير وراء الكبش الكبير السائر وراء العباءة البيضاء ذات الخطوط السوداء التي تمتد منها يد تتوكأ على عصا الراعي المعقوفة من الأعلى. القطيع يسير ويسير مغمض العينين وهو يجتر ما اجتثت أسنانه الصغيرة الناعمة من أعشاب قصيرة، مهتدياً بجلجلة الجرس المعلق في عنق الكبش الكبير. بعض الخراف الصغيرة تحس أن القطيع كله يسير في اتجاه ليس هو نفسه اتجاه الحظيرة التي ألفتها، فتحاول الخروج من القطيع، فيسرع إليها الكلب الأسود، ينبحها بصوت لا يكاد يخرج من حلقه، لأنه ما يزال ممسكاً بين فكيه بقطعة العظم السوداء المكسورة النخرة وهو يعض عليها بأنيابه، ويرد الخراف إلى القطيع. الاتجاه ليس هو نفسه اتجاه الحظيرة، ولكن القطيع مع ذلك سائر وراء الكبش الكبير ذي القرون الكبيرة السائر وراء العباءة البيضاء ذات الخطوط السوداء التي تمتد منها يد تتوكأ على عصا الراعي المعقوفة من أعلى، والكلب الأسود يتقافز حول القطيع يرد من يحاول الخروج عنه وهو ما يزال يعض بالأنياب على العظمة السوداء النخرة المكسورة التي لا مخ فيها. الراعي ينهض بعد قليل، ينحدر من فوق الهضبة، مقيد اليدين، مكمم الفم، عارياً إلا من سرواله، يجري نحو القرية، يرفع الرجال الكمامة عن فمه:

ـ لص، سرقني يا ناس، سوف أتهم فوراً، وأنا بريء.

في المدينة بعد أيام يلتقي الراعي والرجل، ويمضيان إلى الملهى ليشربا معاً دم القطيع.

76. حتى لا يضيع الصوت

أرفع سماعة الهاتف، صديقي يسألني:

ـ من هو المرشح الأقوى؟ من المتوقع فوزه؟

ـ ولماذا؟

يجيبني:

ـ أريد انتخاب المرشح الأقوى، والمضمون فوزه، لا أريد أن يضيع صوتي.

77. هل تحبني؟

يلتقيان في الصباح، يلتقيان في المساء، يلتقيان في صيف يلتقيان في شتاء، يشربان القهوة معاً، يتناولان الغداء في مطعم صغير، بعيداً عن أعين الرقباء تارة، وتارة على مرأى من كل الرقباء، أصبحت كل شوارع المدينة ملكاً لهما، وكل الحدائق وكل الأرصفة.

يقول لها: "أجمل الأوقات أمضيها معك، في عينيك أرى العالم، يداك مملكتي، صوتك أحلامي، أنت واقعي وخيالي، أنت طموحي وآمالي"، بعد سنوات من هذا العيش المحلق الجميل تسأله: " لم تقل لي حتى الآن كلمة: أحبك"، يصمت، فتسأل: "هل تهواني؟ " يصمت، فتسأل بإلحاح: "لا يمكن أن أصدق أو أطمئن، إلا إذا قلت لي كلمة: أحبك".

78. مركز الكون

ما عدت أستطيع فعل شيء، أحس بالشلل التام، تفكيري وحواسي ومشاعري وقواي كلها تركزت عليها، انصبت فيها، لا أعرف ما هي، أحس

كأن روحي معلقة بها، كأن وجودي كله أصبح مركزاً فيها، هي الكل في الكل، هي وحدها الشغل الشاغل، هي مركز الكون، كأن حركة المجموعة الشمسية قد اختلت، ما هذا؟ أعصابي تكاد تتمزق، عروقي تكاد تنفجر، أكاد أفقد توازني، لا أعرف ما ذا أفعل، لا بد من فعل شيء ما، أكاد أجن، أود لو أحضر كل جرافات العالم ورافعاته، وأنا أحاول ما وسعتني المحاولة، وأخيراً أتمكن منها، لا بد من اقتلاعها، بطرف الدبوس أدفعها، فتخرج من بين الضرسين، بذرة تين صغيرة.

79. قلب الليل

في مجلس أدبي، ضم عدداً من المثقفين، كان يتحدث بصوت جهير، وبلغة عربية فصيحة، وكل من في المجلس يصغي باهتمام، من بعض ما قال: "... أنا أجزم بأن نجيب محفوظ سرق روايته قلب الليل من رواية قلب الظلام لجوزيف كونراد، حتى العنوان نفسه لم يغير فيه، سوى أنه بدل كلمة بكلمة، الليل هو نفسه الظلام، والظلام هو نفسه الليل، وهما رمز واحد لبريطانيا العظمى التي كانت مستعمراتها تمتد وراء البحار، ومصر كانت خاضعة في العهد الملكي للنفوذ البريطاني..."، واستمر صاحبي يتكلم ويتكلم، هممت بسؤاله: هل قرأت إحدى الروايتين، ولكنني صمتّ.

80. الزي العربي

يحدثني جدي العجوز عن الزي العربي، ويسهب في الحديث، ويسترسل، مفاخراً، وهو يذكر العباءة، والسروال، والشال، والشملة، والقهوة المرة، والدلة والفنجان والهال، فأجيبه:

ـ أعرفه، أعرفه، أعرفه ياجدي.

يسألني مدهوشاً:

ـ وأين رأيته؟

ـ في أبواب المطاعم والمقاهي والفنادق.

81. كرم ومكافأة

بيد وضعت المعاملة أمامه على الطاولة، ومددت إليه اليد الأخرى وهي مطوية على قطعة نقدية كبيرة. قال لي:

ـ الحمد لله، طوال عمري ما قبضت رشوة، أمضيت في الوظيفة ثلاثين عاماً، أتسلم من المراجع المعاملة، لا أطلب منه أي شيء، ولا آخذ، ولكن إذا أعطاني هو أي شيء تجود به نفسه، بعد إنجاز المعاملة، فلا بد أن أقبله، هذا ليس رشوة، هذا كرم ومكافأة.

82. خطأ في الحساب

أرجع إليه، أقول له:

ـ يا أخي، أخطأت معي في الحساب.

ويقاطعني صارخاً:

ـ أنا لا أخطئ، احسب المبلغ ، أنت على غلط، تريد سرقتي، لا تراجعني، ولا تقسم الأيمان.

بهدوء أقول له:

ـ الخطأ لصالحك يا أخي، أنت أعدت إليَّ أكثر مما يجب أن تعطيني، أنا سأرد لك .

يتناول مني المبلغ الزائد، من غير أن تتورد وجنتاه، ومن غير أن ينبس بكلمة.

83. تعزية

أمر به، ونمضي معاً إلى التعزية.

سرادق كبير نصب أمام المبنى، غطى الرصيف والشارع، وقطع الطريق، عشرات السيارات اصطفت في مدخل الطريق، كبار القوم ورجالات الدولة والمجتمع والوجهاء جاؤوا للتعزية، أكاليل الزهر صفت على طول الشارع، وفي مدخل السرادق، وقد تراكم بعضها فوق بعض، صوت القارئ وهو يتلو القرآن الكريم يصل إلى بداية الشارع، في مدخل السرادق

وقف أولاده وأحفاده، لا بد من مصافحتهم جميعاً، ربما كانوا أكثر من أربعين، أكبرهم هو مدير مؤسستنا، وقد جئنا لتعزيته في والده.

صديقي إلى جانبي، المعزون يتوافدون، سرب يأتي وسرب يذهب، كلهم من وجهاء القوم وكبار رجالات المجتمع، مديرنا يحييهم وهو يبتسم، يقعد إلى جوار بعضهم أحياناً، يميل عليهم، يحدثهم، يضحكون، كأنهم يتبادلون الطرائف، أو كأنهم يعقدون صفقة، المدير وإخوته جميعاً وأبناؤهم في بزات أنيقة جديدة، ربطات عنقهم مترفة، ذقونهم محلوقة للتو، ناعمة، القارئ يرتل القرآن الكريم، ولكن ما من أحد يصغي.

أفهم من أحاديث جانبية أن الميت قد تجاوز التسعين، وأنه قبل أن يموت قد رأى أحفاده، وأحفاد أحفاده، وأن عددهم قد ناف على الأربعين.

أشعر أني وصديقي أصغر من في السرادق، وأضعف خلق الله، حيينا المدير وصافحناه وعزيناه، فلم نسمع ماذا قال لنا، نبست شفتاه بكلمات لم تبلغ مسامعنا، كأنه مل من كثرة التعزية، أو كأنه لم يبال بنا، هو حقاً لم يبال بنا، لم يقعد إلى جوارنا ولم يرحب بنا، ولم يقدمنا إلى إخوته، ولم يقدمهم لنا، وبحكم العادة تقدم منا المضيف صب لنا فنجان قهوة، ومضى، ولم يعاود الكرة.

ألتفت إلى صديقي، أرى دمعتين تجولان في عينيه.

هل هو متأثر إلى هذا الحد؟ أدهش، أبناء المتوفى وأحفاده أنفسهم لم أر في أعينهم أثراً للدموع، البسمات تعلو وجوههم، لعله تأثر بآيات الذكر الحكيم، ولكن أعرفه ليس متديناً.

يتنبه إليَّ، فيلمس يدي، أن انهض، وننهض، نودع المدير وإخوته وأبناءهم، نكرر لهم التعزية، ونمضي.

وما إن نخطو خارج السرادق بضع خطوات حتى ينفجر باكيا، أدهش، أقول له:

ـ ما بك؟ لم هذا البكاء؟ أنت رجل، كأن الميت أبوك؟

ويضحك، يقهقه، ثم يلتفت، يقف، ليلحق الشتائم بي وبأبي وبالميت وبأبيه وجدوده، ثم يقول لي:

ـ لماذا جئت بي إلى التعزية؟ لكي تغيظني؟

ـ لا يا أخي، أنا وأنت موظفان في المديرية، والمدير مات أبوه، ومن الواجب أن نعزيه، ولنا في تعزيته أجر وثواب.

فيصيح:

ـ لا أريد هذا الثواب، ولا هذا الأجر.

ويصمت، ثم يتكلم، ونحن نمشي:

ـ أبي مات، وأنا ابن أربع سنين، لم يخلف غير أختي وأنا، تركنا وحيدين، عشنا أيتاماً، أمي شقيت في تربيتنا، ثم لحقت هي الأخرى به، ماتت وأنا في الخامسة عشرة، لا أذكر من أبي أي شيء، حتى كلمة أبي لا أعرفها، لا أعرف سوى قبره، العيد يعني بالنسبة إلي زيارة قبره والبكاء عنده، وأمي تلبس الأسود، يسألني المعلم في المدرسة ما عمل الوالد، فأقول والدي ميت، كل الأولاد يباهون بآبائهم وأعمالهم، وأنا لا أعرف أبي، أخشى أن تكون علاماتي قليلة أو أن أشاغب فيطلب مني المعلم إحضار أبي إلى المدرسة.

أقاطعه قائلاً:

ـ أنت الآن أب ورجل وزوج؟

ـ هذه مصيبة أخرى، أولادي يسألونني عن جدهم، فآخذهم إلى المقبرة، أقف أمام القبر، أقول لهم: هنا جدكم، أنت لا تعرف، عانيت كثيراً، الأب ضروري للولد والشاب والرجل، تمر بي حالات من الضيق أشتِم فيها أبي وألعنه في قبره، أنا أكره أبي، لأنه مات وتركني.

أكاد أضحك، ولكن أمسك نفسي، وأقول له:

ـ الأعمار بيد الله، ولا يموت ابن آدم حتى يستوفي أجله، ومثل هذا الكلام غير مقبول، وقد قال المولى عز وجل

يقاطعني، ليصيح قائلاً:

ـ أرجوك، أعرف، أعرف كل ما تقوله أو ما تريد قوله، ولكن في هذا المجتمع لا أحد يرحمك إذا لم يكن لك أب قوي وإخوة ينصرونك، رأيت الآن بعينك، ترى هل سار في جنازة أبي أحد عندما مات؟

قضم شفتيها، اعتصر ضلوعها حطمها سحقها، وأغفى. دهشت لهذا الشوق الجارف. نهض بعد ساعتين مستاء، ارتدى ثيابه، واتجه إلى الباب، ومن غير أن تنبس بكلمة، صاح:

ـ لا تسأليني إلى أين، إلى جهنم، لن أرجع.

بكت، توقف هنيهة، أضاف:

ـ لا بد من السهر الليلة مع أصحابي، اليوم تخاصمت مع المدير، فأصدر بحقي عقوبة، حسم خمسة بالمئة من الراتب، لثلاثة أشهر، لا بد أن أفرِّج عن نفسي.

85. وحدة الموقف

عقدوا ثلاثة اجتماعات، التقوا أول مرة في المقهى، ثم تناولوا العشاء في مطعم، وفي الليلة السابقة على الاجتماع بالمدير العام سهروا في بيت أحدهم، اتفقوا على توزيع الأدوار، هم ثلاثة عشر موظفاً، هم الأقدم في المؤسسة، والأكبر عمراً، والأكثر ثقافة، كل واحد منهم سيطرح في الاجتماع أمام المدير العام جانباً من أخطاء رئيسهم المباشر.

ما كاد المدير العام يفتتح الاجتماع بالثناء على رئيسهم المباشر حتى بدأ الجميع، واحداً بعد الآخر بذكر إنجازاته وتأكيد إعجابهم به وولائهم له.

86. السكر في القهوة

حملت إليه فنجان القهوة وإلى جانبه كأس ماء وصحن السكر، صاح بها:

ـ لماذا لم تضعي فيه السكر؟

أجابت بهدوء:

ـ أمس وضعت فيها نصف ملعقة سكر صغيرة، فقلت أصبحت القهوة حلوة، تركت لك حرية الاختيار.

نهض مغضباً، وهو يصيح:

ـ بعد عشرين عاماً من زواجنا ما عرفت كيف أشرب قهوتي.

ـ أنت بعد عشرين عاماً تغيرت.

صاح وهو يغادر المنزل:

ـ نعم تغيرت، كل شيء يتغير، بل يجب أن يتغير.

في المكتب، حملت إليه السكرتيرة فنجان القهوة، وإلى جانبه كأس ماء وصحن السكر، وهمست له:

ـ لم أضع فيها السكر، تركت لك حرية الاختيار.

أجابها هامساً:

ـ ضعي فيها السكر، أو لا تضعيه، سأشربها كما شئت، هي من يدك لذيذة، كيفما كانت.

87. عند نهاية العام الدراسي

كل سنة، عند نهاية العام الدراسي، يتذمر من العمل الإداري، ويشكو، ويعلن عن عزمه على ترك الإدارة، ويقسم أنه زاهد فيها، ولا يريدها، ويؤكد أنه يريد أن يعود مدرساً عادياً علاقته مقتصرة على الطلاب، وليكون واحداً من الزملاء، فقد ملَّ من الإدارة، خمسة عشر عاماً أكلت من عمره، وأفنت أعصابه. وكل سنة مع بداية العام الدراسي يتسلم عمله مديراً، وينشط لممارسة مهماته، وهو أقوى ما يكون.

88. العصفور

القاعة الكبيرة مغلقة، مغلقة الأبواب، مغلقة النوافذ، مغلقة الجدران، حتى الشوارع المؤدية إليها مغلقة، لا سيارة ولا دراجة ولا رجل، العرق يتصبب على الجباه، يسري تحت الآباط، يسح على الأصلاب، الأصابع تتحرك لاهثة تداعب علبة التبغ، تود إشعال سيكارة، الأرجل تشنجت، من طول الانتظار، ثم من طول القعود، ولابد بين حين وآخر من التصفيق، ولابد أحياناً من النهوض والهتاف، لا أحد يفك ربطة عنقه، لا أحد يفك ربطة حذائه، لا أحد ينبس أو يهمس أو يعلق، هو وحده من يتكلم ويشير ويدخن ويحتسي الماء ويتكلم ويتكلم، تأخر ساعة حتى وصل، والآن مرت أربع ساعات وهو ما يزال يتكلم. عصفور صغير في فضاء القاعة وحده يحلق، يطير، يصيح، لا يهدأ ولا يستقر، زجاج النافذة في أعلى الجدار مكسور. المرافقون والحرس الخاص وحدهم يرقبونه بحذر شديد، أيديهم على أسلحتهم المنوَّعة المختلفة، ينتظرون أصغر إشارة. من كسر الزجاج؟ من سمح للعصفور بالدخول؟

89. اعتذار

أمام باب المطعم، توقف، اعتذر، وأخذ يتكلم بلكنته المحببة، وصوته يتهدج، وهو لا يقدر على نطق العين والحاء، قال:

ـ لا أقبل دعوتك، أنا أعتذر، هذا المطعم سيكلفك كثيراً، وهو سيقدم لي طعاماً غربياً أعرفه، عندنا في فرنسا مثله كثير، أريد أن تأخذني إلى مطعم شعبي رخيص، لأتناول طعاماً شائعاً عندكم، يمثل البلد.

90. تأبين

وقف يؤبنه فقال:

ـ لقد اختطفته منا يد القدر الغاشم، وأغارت عليه المنون، فاغتالته قبل الأوان، لم يستوف عمره، ولم يعش حياته، مات قبل حين موته، لو أنه عمر لأعطى أكثر مما أعطى، ولأبدع أكثر مما أبدع، ولكن الموت لم يمهله، كأن الموت أخطأ في العنوان، فزاره قبل حين الزيارة، ما كنا نظن أنه سيموت، على الرغم من تجاوزه الثمانين ...

.91 التاريخ يعيد نفسه

أرسل حفيد هرون الرشيد رسالة قصيرة بالهاتف الجوال إلى ملك الروم قال فيها:

ـ أعتذر عما كان جدي قد قاله، فاطمئن، لن تسمع منا نحن الأحفاد أي شيء، ولن ترى.

.92 غيمة صادقة

لمع البرق، وقعقع الرعد، ولم يهطل المطر. رفع أحد الرعايا، وهو عاري المناكب، رأسه إلى السماء، رأى الغيمة وهي تسري، خاطبها صامتاً فقال:

ـ امطري حيث شئت، فلن يصلني من خيرك أي شيء.

.93 وجه

لأجل عينيك أعطي، أي سحر فيهما لا أدري، تتألقين كالبدر، كيف تألقت؟ كأني أعرفك منذ ألف عام، بهدوء ألفظ الحروف، بإيقاع أنطق الكلمات، أرسلها إليك، أفكار أخرى ترد على خاطري، غير ما هيأت له نفسي، كأنه أوحي إلي، لست أدري ما ذا أقول، بل لعلي أدري، أنا أكثر وعياً وإحساساً بالزمان والناس والقاعة والمحاضرة، بل أنا أكثر انجذاباً كأني لا أحس بشيء، في عينيك همس، ولكن أخشى أن يضيع مني الكلام، لا بد أن أوزع نظراتي ذات الشمال، وذات اليمين، أخشى أن يتنبه إليَّ الآخرون، ولكن أخشى أن تضيعي مني، لا بد أن أراك بعد المحاضرة، هل أنت هنا من هذا البلد؟ أم هل جئت إلى هنا من بلد آخر مثلي لتحضري محاضرتي، لا بد أن أراك...

تنتهي المحاضرة، وينهض الجمهور، في الزحام أفتقد الوجه، يدعوني المدير إلى مكتبه، يدعو بعض الحاضرين، سأراها في مكتبه، لا يمكن أن تغادر من غير أن تعرفني إلى نفسها، في غرفة المدير ألتقي عدداً من المهتمين، نشرب القهوة، أفتقدها. أرتشف القهوة سريعاً، أنهض، أستأذن الجميع، أودع المدير، لعلي أراها في الخارج، ولكن لا أحد، أتوجه إلى مركز انطلاق الحافلات، أتريث قليلاً لعلي أجدها وقد جاءت لتودعني، ولكن لا

أحد، الحافلة تتحرك، أنا آخر من يصعد إليها، الحافلة تمضي بي، لتغادر البلد إلى مدينتي، تجتاز الشوارع، عند إشارة المرور تقف، ألتفت، وإذا هي هناك على الرصيف، يطالعني وجهها، أرى عينيها، من وراء الزجاج أشير إليها مودعاً.

هل هي حقيقة؟ أم هل أنا واهم؟

94. فيلم للأطفال

خمسة وأربعون راكباً، على مدى ثلاث ساعات، يتابعون فيلماً، يبثه جهاز العرض المعلق في مقدمة الحافلة، فوق رأس السائق، الفيلم قديم، سخيف، ممل، العرض سيئ، الشريط متقطع، الصوت صاخب، الركاب جميعاً يتابعون العرض، لا أحد يغمض عينيه، لا أحد يدير وجهه، لا أحد ينام، لا أحد يحتج. طفل صغير يترك مقعده إلى جوار أبيه، يخطو في الممر الضيق بين المقاعد، يصل إلى السائق، يميل عليه، يسأله:

ـ هل عندك فيلم للأطفال؟

95. البحث عن اسم

بعيد الحادية عشرة ليلاً، يقرع الباب، فأدهش، أسأل نفسي: ترى من الزائر في هذا الوقت؟ وأفتح الباب، وإذا هو جاري، يحييني، ويعتذر لهذه الزيارة في وقت متأخر، ثم يسألني أن أعيره معجم الأعلام لخير الدين الزركلي، فأحمل المعجم بأجزائه التسعة، وأضعه بين يديه، يرى الدهشة في عيني، فيتكلم من غير أن أسأله:

ـ زوجتي حامل، وهي على وشك أن تضع خلال اليومين القادمين، استخدمنا التصوير بالصدى، عرفنا أن الجنين ذكر، وقد حرنا في اختيار الاسم.

وأقول له:

ـ جرت العادة عندنا على تسمية المولود باسم أحد أجداده.

ويجيبني:

ـ نحن خمسة إخوة، وقد رزق إخوتي كلهم بأولاد سموهم بأسماء الأجداد والمشاهير، نحن في الواقع أسرة كبيرة جداً،

وعندنا شجرة نسب كبيرة، وإذا عدنا إلى مئة عام أو أكثر قليلاً نجد أحد أجدادنا قد سمى ابنه عبد الحميد، على اسم السلطان عبد الحميد، ثم رزق بولد آخر سماه مصطفى كمال، إعجاباً منه بمصطفى كمال أتاتورك، وعندما تبين له غدره بالعرب وخيانته لهم، كان الاسم قد سجل وفات الأوان، ثم رزق جد آخر قريب بولدين أسمى الأول فيصل والآخر أسماه عبد الله، تيمناً بولدي الشريف حسين: الملك عبد الله والملك فيصل، ومع تألق نجم الملك فؤاد ثم الملك فاروق، نجد جدين في الأسرة يحملان اسميهما، وفي مرحلة الوحدة مع مصر وصعود المد القومي يرزق جد لنا بولدين فيسمي الأول جمال عبد الناصر، ويسمي الثاني عبد الحكيم عامر، هكذا لفرط حماسته يسميهما بالأسماء الكاملة، ثم يسمينى أبي ياسر، إعجاباً منه بياسر عرفات، وأنا في الواقع حائر، لا أعرف أي اسم أختار لولدي، ولذلك جئتك أستعير معجم الأعلام.

بعد يومين أو ثلاثة، يقرع الباب، وإذا جاري يحمل لي معجم الأعلام، وأسأله عن الاسم الذي اختاره، فيقول:

ـ للأسف، التصوير بالصدى لم يكن دقيقاً ولا ناجحاً، رزقت ببنت، أسميتها نانسي عجرم.

96. الجريدة في تطور

هذه هي عادته، أعرفها منذ بضع سنوات. هو صديق العمر، كل يوم ألتقيه عصراً في المقهى. يبسط جريدته على المنضدة، ويطلب فنجان قهوة، يلقي نظرة على صفحات الجريدة، لا يقرأ فيها سوى العناوين، ثم يعلق كعادته:

ـ لا جديد، هذه هي الجريدة، في تراجع مستمر، من الحضيض إلى الحضيض، لا شكل ولا طباعة ولا مستوى.

في بعض الأحايين يقول من غير أن يفتحها:

ـ اليوم طرأ بعض التطور على الجريدة، هي أفضل حالاً، حتى الطباعة أفضل نسبياً.

ثم يبسط الجريدة على المنضدة، يفتحها، يلقي نظرة سريعة عليها، ثم يصيح، وهو يصطنع الاندهاش:

ـ أوه، انظر، هذه مقالة لي منشورة في هذا العدد.

97. عاشق آخر

حطت بنا الحافلة في المدينة البعيدة، ونزلنا إلى الشارع غريبين، لا أحد يعرفنا هنا، أمسكت يدها، وانطلقنا، ولكن ما إن خطونا بضع خطوات، حتى سمعت صوتاً من ورائي يناديني بالاسم، حتى هنا، لم نفلت من الرقباء، أين يمكن أن يفر المرء مع من يحب؟ تجاهلت النداء، ولكنه ناداني ثانية، والتفت، عانقني ورحب بي، رحب بها، رفع هاتفه الجوال، واتصل قائلا:

ـ نلتقي فوراً في النادي.

في النادي أمضينا النهار كله، هو وصديقته، أنا وصديقتي، وفي المساء قال:

ـ عندي شقة خاصة يمكن أن تبقيا فيها إلى الغد.

ولكن كان علينا أن نغادر.

كان هذا قبل أعوام ... وإلى الآن لم يبح بالسر، "فهو مثلي عاشق كيف يبوح"؟.

98. صورة

على الجدار أمامي عُلِّقت لوحة تحمل آية الكرسي، وهي مكتوبة بخط الثلث، ومحاطة بإطار فخم مُذَهَّب، على الجدار فوق رأسه، عُلِّقت لوحة أخرى تحمل الآية الكريمة: "هذا من فضل ربي"، وهي مكتوبة بخط ديواني، ومحاطة بإطار فخم، وفوق الباب الخارجي علقت من الداخل لوحة ثالثة تحمل سورة الإخلاص، وهي بخط كوفي، ومحاطة بإطار فخم مذهب، لا أعرف ما السورة المعلقة على الجدار خلفي، فوق رأسي، وهو وراء مكتبه الفخم، كأنه مكتب وزير، وصديقي إلى جواري، وهما يتفاوضان في ثمن الشقة، هو يقسم الأيمان المغلظة، وصديقي لا يكاد يصدق أن يصل ثمن الشقة إلى هذا المبلغ، ويفتح باب جانبي في الجدار وراء مكتبه الفخم، يخرج منه خادم يحمل دلة القهوة المرة، وهو يفتح الباب ألمح صورة معلقة على الباب من الداخل، هي صورة مغنية شبه عارية.

99. القرار

وأخيراً صدر القرار، فاطمأن إليه واستراح. ما كان يقبل أن يتقاعد، كل ما يحلم به أن يموت وهو في منصب المدير العام، كي يُشَيّع في جنازة حافلة، كي يقال: مات وهو المدير العام، عشرين عاماً أمضى وهو في المنصب، ولا يريد أن يتخلى عنه، في كل عام كان يسعى لاهثاً لدى هذا المسؤول وذاك، كي يجدد له العمل مديراً، كان يصطنع الشكوى والتذمر، ولا يريد أن يظهر بمظهر الحريص على المنصب، "أكل مني هذا المنصب، نهشني، أحرق أعصابي، أفنيت عمري فيه"، هذا ما كان يقوله في العلن. والآن هو فرح بالقرار الجديد، وهو ينص على التقاعد حتماً لكل من بلغ الستين، وبذلك يأتي تقاعده طبيعياً، وهو الذي تجاوز الثالثة والستين، بل يأتي تقاعده مع تقاعد العشرات بل المئات من أمثاله، يتقاعد وهو في الإدارة، ولا يقال حرم من الإدارة، أو أزيح عنها، أو سلبت منه. وأخذ يعلن أمام الجميع أنه سعيد بهذا القرار الذي سيطبق على الجميع مع بداية العام الجديد. ومع بداية العام الجديد كان قد حصل على استثناء بأن يبقى في منصب المدير العام مدى الحياة.

100. مع الحداثة

هو زميل في المكتب، نعمل معاً في المديرية، كل يوم يأتي بربطة عنق جديدة، تارة مخططة، وأخرى منقطة، وثالثة خالصة اللون، مرة يأتي بعقدة صغيرة مشدودة، وأخرى يأتي بعقدة كبيرة رخية، يشتري اليوم ساعة يد ذات أرقام، وبعد شهرين أو ثلاثة يبيعها ويشتري ساعة يد ذات مؤشر من غير أرقام، ثم يبيعها ليشتري ساعة ذات سوار ذهبي، ثم يبيعها ليشتري ساعة ذات سوار جلدي، يشتري هاتفاً محمولاً صغير الحجم، ثم يبيعه ليشتري هاتفاً كبيراً بحجم راحة اليد، ثم يأتي بهاتف صغير معلق في أذنه، يأتي بحذاء ضيق رقيق مشدود، وبعد شهر أو شهرين يأتي بحذاء سميك كبير ضخم، وثالثة يأتي بحذاء طويل كحذاء أبي القاسم الطنبوري، تارة يأتي بسالف قصير مقطوع فوق الأذن، ثم أراه يأتي بسالف طويل ممتد إلى مادون شحمة الأذن، وأسأله، فيقول: أنا دائماً مع الحداثة، أريد أن أعيش نبض العصر.

101. معرفة وثيقة

سيارة السيرفيس ممتلئة، والسائق ما يزال يحمل مزيداً من الركاب، ويصعد راكب جديد، ما إن يلمحني حتى يحييني بحرارة، ثم يتكلم بصوت عال، وأنا صامت لا أتكلم:

ـ أهلاً، كيف صحتك، الحمد لله على سلامتك، أنا حملتك على النقالة بيدي وسقتك فوراً إلى غرفة العمليات، أهنئك بنجاتك، لم أغادر غرفة العمليات، وقفت إلى جوارك أرقب تنفسك، أشرفت على إنعاشك، ثم نقلتك بنفسي إلى غرفتك الخاصة، الطبيب نفسه كان قلقاً والممرضات مضطربات، ولكن أنا وحدي كنت مطمئناً، طلب مني الطبيب أن أخرج، ولكني رفضت، لا يمكن أن أتركك ..

الركاب ينقلون أنظارهم بينه وبيني، أطلب من السائق أن يوقف السيارة، أنهض، أقول للرجل الذي ما يزال يثرثر:

ـ أنت مخطئ يا أخي...

يقاطعني ليقول مؤكداً وصوته يجلجل:

ـ لا يمكن أن أكون مخطئاً، أنا أعرفك أكثر مما تعرف نفسك، لك العذر، لعلك لا تذكر، على يدي أنت ولدت من جديد، حين حضر والدك وإخوتك، اطمأننت، تركتك وخرجت، اعذرني ما رجعت إلى زيارتك، ولكني كنت مطمئناً، العناية الإلهية أرسلتني إليك، الحادث كان مروعاً، وأنت كنت وحدك...

أغادر السيارة، أمضي على الرصيف وحدي، هل حصل ذلك حقيقة؟ بدأت أشك؟ ألتفت، فإذا هو يجري في إثري. سأعبر الشارع على الرغم من هذا السائق الأرعن، لا يعقل أن يدوسني، ولكنه يبدو طائشاً، والسيارة...

102. الشرفة

البدر يتهادى في السماء حنوناً، والنجوم تبتسم في سرور، والنسمات الناعشة تمسح الجفون، وأنا أقرأ قصائد من شعر نزار، في سكون الليل الجميل. وأسمع صوت حركة في الشارع، فأطل على الشارع من شرفتي في الدور الثالث لأرى مقابل البناء بجوار الرصيف حاوية القمامة وقد وقفت إلى جانبها دراجة صغيرة، ينزل منها شاب، يغطس في الحاوية، ينبش في القمامة ليلتقط علب المعدن الفارغة، يضعها في كيس، ثم يمضي على

دراجته. ألفت هذه الحركة، لا بد منها في كل ليلة، وبعد ساعة يأتي رجل آخر على دراجة أخرى ليلتقط الزجاجات، وبعد ساعة أخرى تأتي شاحنة صغيرة لينزل منها رجلان ليفرغا الأكياس ويجمعا الخضار وبقايا الطعام، يحملانها علفاً للأغنام، وتتناثر القمامة حول حاوية القمامة.

ثلاث حاويات مغلقة، لها فتحات جانبية، وقد رسمت على الحاوية الأولى علبة صفيح، ورسمت على الثانية زجاجة، وعلى الثالثة رسمت أكياس صغيرة مغلقة، ولاشيء يتناثر حول الحاويات، ولا بقية سيكارة، هذا ما رأيته في شوارع استوكهولم.

وأسمع دوياً، هو كيس قمامة يرمى من نافذة مطبخ في الدور الثالث في البناء الذي أسكنه، أعرف ذلك جيداً، وأنا متأكد من معرفتي بمن رمى الكيس، هي زوجتي أو واحدة من بناتي.

103. تاجر

في سهرة ضمت مجموعة من الصحب كان يتكلم متحدثاً عن نفسه:

ـ أنا أموالي كلها من عرق جبيني، لم أرث ولم أرتش ولم أسرق، بدأت من الصفر، بدأت برأسمال صغير جداً، بدأت بتجارة البناء، اشتريت شقة صغيرة في مشروع لم يكتمل، ثم بعتها عندما اكتمل، فربحت، وبهذه الطريقة كبر رأسمالي، ثم بدأت أشتري المواسم، مرة اشتريت مئة طن من البصل، في أول الموسم، بسعر ثلاث ليرات للكيلو الواحد، وتركته في المخزن شهرين أو ثلاثة، ثم بعته بسعر تسع ليرات للكيلو، تاجرت بسلع كثيرة من البصل إلى العسل، ثم عملت في تجارة القطع الأجنبي، في الشتاء أشتري عشرة آلاف دولار، لأن سعره في الشتاء ينخفض، لا سياحة ولا سفر، ومع موسم السياحة أبيع الدولارات بسعر مقبول، ثم عملت في تجارة السيارات القديمة، ألتقط زبوناً مضطراً إلى بيع سيارته، فأشتريها بثمن بخس جداً، أدخل عليها بعض التصليحات والتعديلات، ثم أبحث عن زبون لا يفقه شيئاً في أمور السيارات، فأبيعها له بالسعر الذي أريد، في التجارة مغامرة، وتحتاج إلى ذكاء، وقد بارك الله ورسوله في التجارة.

104. للتذكير (9)

هي قرية هادئة في جنوب لبنان، آمنة صغيرة، كان السيد المسيح عليه السلام قد مر بها، وفيها عرس، فحضره، الشراب الذي أعد فيها للضيوف كان قليلاً، باركه السيد المسيح، فشرب كل الضيوف وفاض.

وبعد عشرين قرناً أوى معظم أهلها إلى مقر للأمم المتحدة، طالبين الأمن والأمان، خوفاً من طائرات إسرائيلية، ومن صواريخ إسرائيلية، ولكن النيران انهمرت عليهم، وقتل منهم مئة وعشرون من الآمنين، وقد أكد أحد المجندين في إسرائيل أنه قصفها، وأنه كان يود لو يقتل عدداً أكبر. لعلي أنسيت اسم القرية، هل تساعدني على تذكره؟

105. للتذكير (51)

هم مجموعة من الرجال، عددهم ليس بالقليل، اقتلعوا من أرضهم فلسطين، وأجبروا على الرحيل إلى بقعة أرض في جنوب لبنان، عاشوا في العراء، تحت الخيام، أمضوا فيها أشهر الحر والقر، في صيف وفي شتاء، ما قاتلوا، ولا حملوا حجراً ولا سلاحاً، فقط نادوا باسم الحرية لفلسطين، وهم تحت الخيام درسوا وتعلموا، وفيهم الطبيب القيادي الدكتور عبد الله الرنتيسي، هل تذكر اسم المرج الذي جرى نفيهم إليه؟ وهل تذكر عددهم؟ وفي أي عام كان هذا؟ وكم أمضوا من الوقت في المنفى؟ أسئلة كثيرة، لعلنا نسينا الإجابة عن أكثرها، لأنه يراد لنا أن ننسى، فلتكن هذه الأسئلة للتذكير.

106. للتذكير (99)

هو طفل دون الثانية عشرة، كأنه الدرة، في براءته ونقائه، أمسك يد أبيه، وعدا إلى جواره فرحاً، فالأب ذاهب بولده إلى السوق ليحقق حلمه القديم، شراء دراجة صغيرة، وفي الطريق في فلسطين، فاجأتهما دورية إسرائيلية، واختبأ الأب خلف كومة حجار، وخبأ ابنه في خاصرته، حماه بجسده، وصوب أحد المجندين الإسرائيليين البندقية إلى صدر الطفل، وأصابه بدقة في مقتل. هذا الحدث كتب عنه الشعراء العرب والقصاصون مئات القصائد والقصص. وتم تحويله في أمريكا إلى فيلم سينمائي، ولكن جعل الطفل يهودياً من إسرائيل، والقاتل من فلسطين.

هل تعرف اسم الطفل؟

107. للتذكير (100)

هل تذكره؟ هو شيخ عجوز، أشل القدمين، مكسور العمود الفقري، مبحوح الصوت، يتحرك على عجلة، وقد تجاوز السبعين، يحفظ في قلبه القرآن الكريم، لا يغادر المسجد، نهاره صوم، وليله صلاة، وهو خارج على كرسيه النقال من المسجد في غزة، بعيد صلاة الفجر، استهدفته طائرة من إسرائيل، أطلقت عليه صاروخاً موجهاً بالليزر، تحطم الكرسي، وتمزق غطاؤه الصوفي، وانفرطت حبات سبحته، وصار الجسد أشلاء، هو الشيخ أحمد الياسين، هل تعرف ذنبه؟

108. للتذكير (1001)

أديب من فلسطين كان يعيش في لبنان، نسفته قنبلة موقوتة زرعت تحت سيارته. رسام كاريكاتير من فلسطين، يعيش في لندن، أطلقت عليه في الوجه رصاصة من مسدس كاتم للصوت. صبية من إنكلترة جاءت إلى فلسطين لتناصر الأطفال، وتدعو إلى السلام، وقفت في وجه دبابة إسرائيلية، الصبية لا تحمل شيئاً لا في الصدر ولا في اليدين، سوى حبها للسلام، داستها الدبابة، ولونت شعرها الأشقر بدمها الوردي، واختلط المزيج بأرض فلسطين... أرجوك احفر معي في القلب بعض الأسماء...

109. الغطاء الثقيل

الغطاء سميك، سميك جداً، لا أعرف لماذا أحس به سميكاً وثقيلاً وثخيناً، هو يغطيني من أخمص قدمي إلى رأسي، يغطي رأسي كله، وأنا أكاد أختنق، أي نوم هذا؟ لا أعرف؟ سأختنق، لا بد أن أرفع الغطاء عن وجهي لأتنفس الهواء، ولكن يدي لا تطاوعني، هي تحتي، أنا نائم فوقها، لا أستطيع تحريكها، لا أستطيع أن أتزحزح، ما هذا الثقل في جسدي، لا أستطيع أن أحرك يدي، هي متيبسة، كأنها قطعة من خشب، أحاول تحريكها فلا أستطيع، سأختنق، لا أستطيع التنفس، هو الموت، اغفر لي يا إلهي، سامحني يا رب، ولكن فلأحاول، سأرفع الغطاء، سأتنفس، وأنتفض، أنهض، لا غطاء فوق رأسي، الغطاء لا يكاد يغطي كتفي، هو مجرد حلم ثقيل، هو كابوس.

110. عصافير عابرة

في السوق أرى صديقي يشتري أربع كرات صغيرة، كل واحدة منها معلقة في شبكة ذات عيون واسعة، أسأله:

ـ ما هذه؟ هل هي لبن مجفف؟ أو جبن؟

ـ هذا طعام خاص يصنع هنا، فيه كمية جيدة من الدسم، سأعلقه في الخارج على الشرفة، لتأكل منه العصافير العابرة، ولا بد من طعام خاص يوفر لها الدفء، شتاء استوكهولم شديد البرودة،

111. في الموقف الخاص

أهم بفتح باب السيارة، فيقول لي صاحبي:

ـ انتظر

ثم يرجع بسيارته إلى الوراء قليلاً، وهو ينعطف بها، ثم يتقدم بها إلى الأمام، ثم يطفئ المحرك، يثبت الكابح الأرضي، يفك حزام الأمان، وهو يقول:

ـ تفضل، الآن يمكنك النزول.

خارج السيارة يقول لي:

ـ كانت عجلة السيارة على الخط الأبيض المحدد لموقفي.

ـ ولكنك في موقفك الخاص، بين موقف جيرانك، وأنت أمام عمارتك، ولا ترتكب أي مخالفة، ولا شرطي مرور هنا، حتى لو جاء شرطي المرور فلن يخالفك؟!.

ـ لا بد من احترام النظام، نحن هنا في استوكهولم.

112. وقت للراحة وقت للعمل

يستضيفني الأستاذ يوسف طباخ ابن حلب في بيته في استوكهولم، ويعرفني إلى زوجته وأولاده. أعرض عليه في أثناء السهرة أن أعطي أولاده درساً في اللغة العربية، يشكرني، ويقول لي معتذراً :

ـ الأولاد يداومون في المدرسة من السابعة صباحاً إلى الخامسة مساء، وفي المدرسة يؤدون واجباتهم، وفي البيت لا نرهقهم بالأعمال والواجبات، في البيت يعملون على الحاسوب وينمون مقدراتهم ويحققون هواياتهم، هذا هو نظامهم هنا في استوكهولم.

113. تعويض الانتقال

أسأل صديقي الأستاذ يوسف طباخ عن مدارس الأولاد، إن كانت بعيدة عن البيت، وكيف يذهبون إليها، فيجيبني:

ـ لا يجوز أن تبعد المدرسة عن أي تجمع سكني بأكثر من كيلو مترين اثنين، وإذا بعدت المدرسة أكثر منحت الحكومة الطالب تعويض انتقال بالحافلة، المدارس متوافرة بكثرة هنا في استوكهولم.

114. مدرسة

أزور بصحبة رئيسة قسم اللغة العربية إحدى المدارس.

باب المدرسة يفضي إلى غرفة كبيرة، يخلع فيها الطلاب أحذيتهم، لينتعل كل منهم حذاءه الخفيف الخاص، وليعلق معطفه على مشجب، وتقود هذه الغرفة من باب جانبي إلى مراحيض ذكرتني بمراحيض في فندق الشيراتون نزلت فيه ذات مرة مدعواً، ويقود باب آخر إلى غرفة واسعة تنتصب فيها مناضد مدورة، تتحلق حولها مقاعد، وفي الأركان خزائن فيها كتب ومجلات للأطفال، وعلى الجدران صور ولوحات طبيعية، تقول لي رئيسة القسم:

ـ هذا البهو لاستراحة الطلاب ولعبهم.

ثم تقودني إلى غرفة الصف، فإذا هو قاعة كبيرة، أحد جدرانها مجرد واجهة زجاجية كبيرة، تطل على حديقة المدرسة العامرة بالأشجار والبرك وأحواض الزهور، وفي الغرفة ثماني مناضد مستديرة تلتف حول كل منضدة ثلاثة كراسٍ، فغرفة الصف لأربعة وعشرين طالباً فقط، وفي أحد الجدران رفوف وخزائن فيها مئات الدفاتر والكتب ومئات أقلام الرصاص وأدوات الرسم وأكداس الأوراق الملونة وكل ما يحتاج إليه الطالب من أدوات الرسم والأشغال من مقصات ومواد لاصقة، وفي الجدار المقابل خزائن يترك الطلاب فيها دفاترهم، تقول لي رئيسة قسم اللغة العربية:

ـ الطالب هنا يؤدي واجباته المدرسية بإشراف المعلمة، ويترك على رفه الخاص دفاتره وكتبه، ولا يحملها إلى البيت، في البيت يلعب ويتسلى.

في عمق الغرفة منصة كبيرة مستطيلة وراءها كرسي من جلد مريح جداً، واضح أنه للمعلمة، وعلى المنصة جهاز إسقاط وحاسوب وتلفاز ومسجل، ووراء المنصة مغسلة وحوض ومشرب ماء مزود بكؤوس بلاستيكية كثيرة. أسأل رئيسة القسم:

ـ هل هذه المدرسة للمتفوقين، وكم هو القسط الذي يدفعه الطالب للدراسة في هذه المدرسة؟

ـ هي مجانية، وهي لكل الناس، بل إن الأهل يتقاضون مساعدة عن كل ولد، بعض الأجانب هنا يعيشون على المساعدات التي يتلقونها عن أولادهم، هذا هو النظام هنا في استوكهولم.

115. مدينتي

أطل عليها من نافذة الطائرة فأراها كلها، أضمها بالقلب والعينين، وأود لو أضمها باليدين، كأنها سرب حمام أبيض، والقلعة تتوسطها، أصيح هاتفاً باسمها، لا أعرف كيف صحت، وبأي نبرة أو لهجة؟؟ يلتفت نحوي الراكب إلى جواري ليسألني بإنكليزية هادئة جداً:

ـ هذه أول مرة تزور فيها هذه المدينة؟

ألتفت إليه مدهوشاً، أنظر إليه مستنكراً، وأجيبه بحدة:

ـ بل هذه أول مرة أغيب عنها.

يسألني بهدوء:

ـ غبت عنها طويلاً؟

ـ غبت عنها أسبوعاً واحداً فقط.

ـ كل الناس يحبون بلادهم، وكل الناس يغيبون عنها سنين.

ـ ولكن حلب تختلف.

116. أفلام محترقة

في اليوم التالي لوصولي إلى حلب أسرعت إلى أفضل مخبر لتحميض الأفلام وطبعها، وقدمت له ثلاثة أفلام كنت ملأتها بصور فريدة التقطتها في استوكهولم. وحين رجعت إلى المخبر بعد يومين، ناولني الموظف الأفلام الثلاثة، وقال لي:

ـ للأسف الأفلام الثلاثة محترقة، المصوّرة حتماً معطلة، الفيلم ما كان يلف، أو العدسة لم تكن تفتح.

لو لم تكن الأفلام محترقة لما كتبت هذه القصص عن استوكهولم.

117. رائحة حلب

بعد خمس سنوات ما تزال الرسائل تصلني من صديقي ابن حلب، يوسف طباخ، الذي سعى إلى تأمين الدعوة لي إلى معهد اللغات الأم في استوكهولم، لإلقاء محاضرات فيه عن اللغة العربية، وقد أنزلني في ضيافته، ببيته.

في الرسالة الأخيرة يقول لي:

ـ قطعة صابون زيت الغار ما تزال في موضعها حيث تركتها على المغسلة، في كل صباح أتنسم منها رائحة حلب، حيث ذهبت لا يمكن أن تجد مثل صابون الغار الذي تصنعه حلب.

118. مع الأحذية

أدخل المحل لأشتري حذاء، فيرحب بي شاب في نحو العشرين، يعرض علي بعض الأنواع، ولكن ما يلبث أن يتقدم مني شاب آخر، ليقول لي:

ـ المدير في الداخل يدعوك.

أدهش، وأمضي في إثر الشاب إلى عمق المحل، لأدخل غرفة زجاجية صغيرة أنيقة جداً، وينهض من وراء مكتب فخم رجل قصير بدين مدور الوجه، أعرفه على الفور، هو ماجد، زميلي، مدرس اللغة العربية، يوم كنت مدرساً في ثانوية الحكمة. يعانقني مرحباً بي ثم يدعوني إلى مقعد جلدي عريض، يقعد قبالتي، ويأخذ في الكلام:

ـ أنا هنا مدير هذا المحل الفخم، تركت العمل في التدريس بعد انتقالك أنت بسنة، عملت مدرساً أربع سنوات فقط، لم أطق العمل فيه، السنوات الأربع التي عملتها مدرساً لا أعدها من عمري، أنا هنا ملك زماني، عندي أربعة موظفين من خيرة الشباب، لطفاً وذوقاً، يعرفون كيف يتعاملون مع الزبائن...

ويدخل نادل يحمل صينية فيها كأسا عصير، يقدم إلي واحدة، ولصاحبي الأخرى. ويتابع صاحبي كلامه:

ـ كما ترى، أنا هنا ملك زماني، عندي برنامجي الخاص، في التاسعة أصل، فأجد الشابين قد افتتحا المحل، أتناول فنجان قهوة، الشارع كما ترى فيه أكثر من محل لبيع القهوة والشاي والمرطبات والأطعمة الخفيفة الجاهزة، في العاشرة أتناول فطوري، وبعده كأس شاي، في الحادية عشرة لا بد من كأس من عصير.

ويفتح درجاً، يخرج بعض المكسرات، يضعها أمامي، وهو يقول:

ـ ولا بد من المكسرات، أنواع شتى من الفستق والبندق، بائع المكسرات محله قريب من محلي، هو صديق عزيز، يخصني دائماً بأفضل الأنواع، في المدرسة كان حلقي يجف وصوتي يبح، من غبار الحوّار؟ ما زلتم تستخدمون الحوّار في الكتابة على اللوح الأسود، حياتي هنا تختلف، هل تعرف أن راتبي الشهري هو أربعة أضعاف راتبك؟ بعد ذلك أنا لا أعمل أي شيء، دوري هو الإشراف والإدارة فقط، موظفان شابان يداومان في الصباح، وموظفان شابان يداومان في المساء، حتى إني لا أكاد أتحرك من وراء الطاولة

أقاطعه معلقاً:

ـ هذا واضح من وزنك الزائد، فقد امتلأ وجهك، وتدورت بطنك وامتدت...

يضحك، يعلق:

ـ هذه كرش الوجاهة، هل تعرف المثل: الرجل من غير كرش، مثل ملك بلا عرش، أنا هنا أتناول كل يوم وجبتين، عدا وجبة الإفطار، واحدة عند العصر، وأخرى بعيد المغرب، على بعد خمسين متراً يقع مطعم صغير، ولا بد من اللحم، إما لحم الضأن وإما لحم الدجاج، ولا بد بينهما من الحلوى، في الطرف الآخر من الشارع محل لبيع الحلوى الفاخرة، بطلب بالهاتف يحضر لي ما أشاء، لي وللعاملين في هذا المحل، هذا كله على حساب صاحب المحل، لا ندفع أي قرش، لا أنسى يوم كنت مدرساً، حلقي يجف، طوال اليوم كلام وكلام وكلام، هذا الفم لم يخلق للكلام، خلق للطعام أولاً، لاحظ الطفل، يأكل أولاً ثم يتكلم ثانياً، يجب أن نأكل لنعيش.

يرشف آخر ما في كأسه من عصير، فأسأله:

ـ لا شك أنك نسيت المطالعة، وودعت الكتاب.

يجيبني وهو يقهقه:

ـ أنا من قبل ما كنت أحب المطالعة، ولكن مع ذلك ما تركتها، كل يوم يمر أمامي موزع الصحف، فيرمي لي واحدة أو اثنتين من صحف الدعاية، فأقرأ فيها أسعار العملة وبعض الدعايات والإعلانات، لا أظن أن هناك من الكتب ما يستحق القراءة، الثقافة في تراجع.

أهم بالنهوض، فيسألني إن كنت أرغب في شراء حذاء، فأعتذر مؤكداً أني دخلت المحل للفرجة فقط، أودعه، ثم أخرج، وقد مرت على هذه الزيارة خمس سنوات، ما اشتريت فيها حذاء، كرهت الأحذية كلها، أتمنى لو أمشي حافياً.

119. مجرد ليلة واحدة

أنهض من نومي على صوت الريح، أحس بظمأ شديد، أنزل من السرير، أمضي إلى المطبخ، مصابيح الشارع تتأرجح، الريح شديدة، ظلال الستائر تتحرك على جدران الغرفة، أجتاز الممر الضيق، قبل دخولي المطبخ أحس بحركة في غرفة الضيوف، هسيس وزحزحة أشياء، في مثل هذه الليلة اغتيل يوليوس قيصر، السابع عشر من نيسان دائماً هو موسم انقلاب في المناخ، الشمس تنتقل من برج لتدخل في برج، لا أومن بالأشباح، ولا أصدق العرافين، ولا يمكن لأحد أن يدخل الشقة، لا شيء عندي يغري بالسرقة، ضوء الشارع يدخل إلى الغرفة من النافذة، العتمة ليست مطبقة، أوه، يبدو أني نسيت إغلاق النافذة، أو لعل الريح هي التي فتحتها، ولكن ما هذا الغبار، أجتاز الغرفة، أخطو داخلها، أحكم إغلاق النافذة، وأرجع، أضيء مصباح المطبخ، أشرب كأس ماء، وأرجع إلى الفراش. لا يمكن أن أعود إلى النوم بسهولة، ولكن لا بد من النوم، لن أصغي إلى شيء، باب الدار مغلق، مقفل، باب العمارة مغلق، الجدران ملساء، لا أحد يمكنه أن يتسلقها، إذا كان ثمة جني فليبرز لي، ولو برز لي لقتلته، سأفقأ عينه الوحيدة، فلينقطع التيار الكهربائي، لست أبالي، التماع البرق لا يخيفني، بل يؤنسني، حديد الدرابزين في الشرفة كفيل بامتصاص الصواعق وكسرها، والعمارة جديدة ومتينة البنيان.

لكن لا بد من النهوض، أي باب هذا قد أغلق، لا شك أنه باب المطبخ، وأنهض، أبحث عن شيء في العتمة، المظلة معلقة على المشجب، أمسك بها وأمضي، أشد يدي على مقبضها، أسياخ الحديد فيها كفيلة

بقتل عشرة لصوص، ولكن، من أضاء النور في المطبخ، ها هي الكهرباء تعود إلى الشقة، ليس باب المطبخ الذي أغلق، هو باب غرفة الضيوف، لا شك أن أحداً ما في الغرفة، أقتحم الباب، أجعل ظهري إلى الجدار، يدي على مقبض المظلة، السلاح في الحقيقة ضروري، طالما فكرت في شراء مسدس، آثار أقدام على الأرض المغبرة، النافذة مفتوحة، هل أحس بنهوضي فهرب، أسرع إلى النافذة، أغلقها، أحاول إحكام الإغلاق، فأجد قفلها معطلاً، كم مرة نبهتني زوجتي إلى إصلاحه، ولكني تكاسلت. أرجع إلى الفراش. ويرن جرس الهاتف، أرفع السماعة، وإذا صوت زوجتي:

ـ الآن انتهى حفل زفاف أختي، ذهبت مع عريسها إلى بيتها الجديد، لن أستطيع العودة إلى البيت، سأبقى الليلة أنا وابنتي عند أمي في القرية، الأمطار عندنا غزيرة، والطريق شبه مقطوعة، أرجو ألا تكون عندكم عواصف أو رعود، أعرفك تخاف من البرق والرعد، على كل حال هي مجرد ليلة واحدة تمضيها وحدك، غداً في الصباح أكون عندك، هل تريد مني أن أغامر أنا وابنتك ونرجع في هذه الليلة؟

120. قبلة

يلف بها في شوارع المدينة، يقف عند كل المعالم السياحية، يمضي معها اليوم كله من التاسعة صباحاً إلى العاشرة ليلاً، يشتري لها وجبات سريعة، تتناولها في السيارة وهو يلف بها ويدور، ثم يحط بها أمام الفندق، تنفحه خمسمئة دولار، تتكلم معه بعربية ثقيلة، تقول له:

ـ ثلاثمئة لك شخصياً لجهودك، والبقية أجرة السيارة، وثمن الوقود.

يشكرها، يميل عليها، يهم بتقبيلها، تبتعد عنه، تضع يدها على فمها معتذرة، وهي تقول:

ـ أنت شاب قوي، أنت مثير، أنا عرفت من البداية أنك ترغب في ممارسة الحب معي، وأنا مستعدة لممارسة الحب معك، تفضل إلى غرفتي، أو نذهب إلى أي مكان، أو هنا في السيارة، ولكن من غير قبلة، أنا آسفة، فمي أولاً للصلاة، أرتل به في الكنيسة، وهو ثانياً لحبيبي جان، أنا عندي حبيب في لندن، وحده يمكن أن يقبلني، بهذا الفم قلت له أنا أحبك، وآخر ما أفكر فيه أن يكون فمي للطعام والشراب، أنا آسفة.

121. عصافير

هذه هي المرة الثانية، ولعلها الثالثة، التي أراه فيها، وهو يمر في الحديقة يحمل قفصاً للعصافير فارغاً، في الأسبوع الماضي، وفي مثل هذا اليوم، رأيته يمر وهو يحمل قفصاً فارغاً أيضاً، هو مثلي، عجوز متهدم، يجر خطواته جراً، مجهداً، كأنه يحمل ثقلاً كبيراً، أراه يقترب من أحد المقاعد، يلقي بجسمه عليه، يقعد، كمن أنهكته رحلة طويلة، يغمض عينيه، لينعم بدفء شمس نيسان. أنهض من مقعدي، أتوكأ على عصاي، أدنو منه، ألقي عليه التحية، ثم أقعد إلى جواره، وأنا أقول له متعللاً:

ـ الظل اقترب مني هناك، وددت القعود إلى جوارك، الشمس هنا تغمر هذا المقعد، ما أحوجنا ونحن في السبعين إلى الدفء.

يرحب بي، ومن غير أن أسأله يشرع في الكلام:

ـ لم يبق لنا شيء، حتى الأولاد والأحفاد تركونا، أنا لم يبق لي إلا العصافير، أربيها في شقتي، هي مثل أولادي، أزوِّج بعضها من بعض، تتناسل، كلما كبر فرخ اشتريت له قفصاً جديداً، ثم بحثت له عن أنثى، ثم آخذ في رعايته هو وأنثاه، حتى يفقس البيض، أرعى فراخه، أراها مثل أولادي، بل أفضل من أولادي، العصافير على الأقل لا تفر، لا تطير مني، لا تهرب، تبقى معي، صدقني معها بدأت حياة جديدة.

تمر بضعة أشهر، وفي ليلة من ليالي الصيف أراه وهو يكاد يغفو على أحد المقاعد، ناعماً بنسمات الحديقة الرطبة، أحييه، أقعد إلى جواره، أسأله:

ـ كيف أنت والعصافير؟

ينظر إلي بعينين كليلتين ناعستين، ثم يتكلم:

ـ طارت هي الأخرى، فرت، فلّت، ما بقي عندي أحد، ولا عصفور، فتحت لها الأبواب، تركتها تذهب في السماء، تعود إلى بارئها.

122. الملك الأصفر

كل من يمر كل يوم بين السابعة والتاسعة مساء في الشارع الرئيس الذي يخترق المدينة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، لا بد أن يراه، وهو يروح على طول الرصيف الأيمن، ويرجع على الرصيف الأيسر، يسير بهدوء وتؤدة، يمشي كأنه ملك يتفقد رعيته، أو عارض أزياء يستعرض زيه، أو نجم يسير منتظماً في فلك، أو إنسان آلي يتحرك بقوة داخلية حركة ثابتة، أو عاشق ذاهل عن كل ما حوله.

يلبس بدلة صفراء، حذاؤه أصفر، جوربه أصفر، حذاؤه أصفر، حزام ساعة يده أصفر، الهاتف الجوال في يده أصفر، محفظته الجلدية صفراء، شعره طويل مسترسل على كتفيه، مصبوغ بالأصفر، مجعد في ثنيات دقيقة ناعمة مسترسلة كالموج الناعم، لحيته طويلة، ناعمة مدببة، مصبوغة بالأصفر، شارباه نحيلان معكوفان إلى أعلى وهما مدببان ناحلان، مصبوغان بالأصفر أيضاً، في فمه غليون لونه أصفر، ينفث بين حين وآخر دخانه العطر، وهو يرفع رأسه، كأنه ينفح الكون كله سحابة من عطاياه، رموش عينيه مصبوغة بالأصفر، على حدقتي عينيه وضع عدستين لاصقتين صفراوين.

قيل هو عالم كبير، اخترع نظرية في الكيمياء، ولكن أحداً لم يقدره فذهل عن نفسه، وقيل هو بروفيسور، حاز الدكتوراه في فرنسا عن المسرح في عصر الملك لويس الرابع عشر، وقد مثل دوره في إحدى المسرحيات، فتقمص الدور، ولزمه، ولم يستطع الخروج منه، وقيل هو صاحب جماعة تسمي نفسها جماعة الصفر، وأتباعه كثر، وهم منتشرون في كل مكان في العالم، ولكنهم لا يظهرون بمظهره، حتى لا يكشف أمرهم، ولكن لابد أن يظهروا ذات يوم، وهم ينتظرون منه الإشارة، وقيل كان يحب صبية تسكن في هذا الشارع، وقد وعدته أن تكون له، ولكنها تزوجت غيره، وقيل إنه مفتتن بنفسه ويريد تأكيد ذاته، مثل الفتى نرسيس، وقيل إنه رجل عادي، يريد أن يمارس حريته، لا أكثر ولا أقل، وقيل إنه ملك الجن الصفر، فمن الجن صفر وزرق وحمر، وهو ملك الجن الصفر، وقيل إنه يعد نفسه من معدن أصيل لا يتغير كالذهب، لذلك صبغ نفسه بالأصفر، وقيل عنه أشياء أخرى كثيرة. ولا أحد حتى اليوم يعرف حقيقته، ولا أحد يسأله.

123. استعداد

وصلت شهرته قبل وصوله بعدة سنوات، طبيب جراح، مختص بعمليات القلب المفتوح، يتنقل بين الجامعات الأمريكية بطائرة خاصة، يجري كل يوم أكثر من خمس عمليات.

فور وصوله إلى الوطن يتسلم منصب رئيس قسم الجراحة في المشفى الوطني، بعد عام يتسلم منصب مدير المشفى الوطني، ثم مدير عام للمشافي، وبعد أقل من خمس سنوات يعين معاوناً لوزير الصحة، يمضي فيه ست سنوات، ثم يوفد إلى أمريكا للاطلاع والتخصص لمدة أربع سنوات، يجري خلالها في أمريكا تسعة آلاف عملية قلب مفتوح وألف عملية زرع قلب اصطناعي، وفق ما جاء في نشرة وزعتها مديرية الصحة في محافظته قبل عودته، فور رجوعه يعين مديراً لمديرية الصحة، ويبقى فيه ثلاث سنوات، ثم يعمل مديراً عاماً للصحة المدرسية، مدة سنتين، ثم يعمل ممثلاً لبلاده في منظمة الصحة العالمية في جنيف لفترتين أي لثماني سنوات، ثم يتم استحداث مركز للتنمية الصحية على مستوى القطر، ويرجع إلى الوطن فيعين مديراً عاماً له، يمضي فيه عشر سنوات، ويكون قد بلغ الستين، فيعين خبيراً في المركز نفسه مدى الحياة، طوال الفترة التي أمضاها في الوطن، وهي أقل من ثلاثين عاماً، حضر مئة وخمسين مؤتمراً طبياً عالمياً، بمعدل خمس مؤتمرات في السنة، وقد أخذت منه مناصبه الإدارية كل وقته، فلم تتح له مناصبه خلال ثلاثين عاماً من إجراء أي عملية.

124. مجموعة قصصية

كتبت قصة قصتين، وقصة ثالثة، كتبت مجموعة، الغلاف أنيق ملون، طبعت ووزعت ونفدت، وأستيقظ وإذا هو مجرد حلم. واليوم تصدر مجموعتي القصصية العاشرة، ليس حلماً، هو واقع. ولكن، لست أدري أيهما أجمل؟!

125. السلم

هو سلم من خشب غير منجور، مصنوع من جذعي شجرة، وبعض الأغصان المقطوعة، دقت فيه بضعة مسامير، ما أزال أذكره، وأنا طفل، مركوناً دائماً في فناء الدار إلى السطح، يصل بين الأرض والسماء، أرقى درجاته الست، أقعد فوق الدرجة العليا، أنظر إلى سحب الخريف الرقيقة، تدفعها الأنسام، فأحس بالدار وهي تسير، أرقب السماء، أتخيل أني نبي سوف يوحى إليَّ، وتأتي ابنة الجيران، أهبط بضع درجات، تقف تحت السلم، أنظر إليها من أعلى، أرى شعرها المفروق في وسط رأسها، أرى ضفيرتيها، أحس أني سأسقط فوقها، أو كأني أرغب في ذلك، تناديني، فأنزل إلى الدرجة الأولى، نقعد عليها متجاورين، نقتسم رغيفاً مرشوشاً بالزيت والزعتر، لا أعرف لماذا أحب أن ألتصق بها. وكم صعدنا إلى السطح

ولعبنا واختبأنا، وقطفنا حبات التوت من الشجرة الكبيرة الباسقة الممتدة الأغصان فوق السطح، كم كان قطفها سهلاً.

السلم تحت الشمس والمطر ومرور السحاب بدأ يتشقق، يمتص المطر فيندى، ثم يجف فييبس، بدأت درجاته تطقطق، تزحزحت المسامير وخرجت من مواضعها، إذا صعدت عليه اهتز وارتعش، الدرجة العليا أفلتت، سقطت، الدرجة الأولى انكسرت، أصبح الارتقاء إلى السطح صعباً، أصبح خطراً.

اليوم وأنا في الستين، أرقى درجات البناء إلى شقتي، رجلاي على الدرج تخذلاني، ركبتاي تطقطقان.

126. في مطلع الألفية الثالثة

ـ هل عندك بنات للخطبة؟

ـ عندي أربعة

ـ أريد بنتاً طولها أكثر من مئة وسبعين سنتيمتراً وأقل من مئة وثمانين، لا يزيد وزنها على السبعين، ولا يقل عن الستين، شقراء، طويلة الشعر، زرقاء العينين.

ـ ما عمل ولدك

ـ تاجر

ـ ما هي تجارته

ـ يعمل في محل لبيع الألبسة الجاهزة

ـ وهل المحل ملك له؟

ـ قريباً سيشتري محلاً

ـ وهل عنده بيت؟

ـ سيتزوج عندي، في بيتي أربع غرف سأعطيه أكبر غرفة، وليس عندنا في البيت أحد، سوى أنا وزوجي وأربعة أولاد وابنة واحدة، عائلتنا صغيرة.

ـ وما هي دراسة ولدك؟

ـ ابني حصل على الشهادة الثانوية مرتين، لم يدخل الجامعة، هو لا يحب الدراسة.

ـ كم عمر ولدك؟

ـ لم يبلغ الحادية والعشرين

ـ أنا بناتي كلهن فوق العشرين، الأولى في السنة الخامسة من كلية الطب والثانية في السنة الثالثة من كلية الهندسة المعمارية، والثالثة مجازة في اللغة العربية، والرابعة....

ـ حظ بناتك ضعيف، للأسف، ليس لبناتك نصيب عندي، ابني لا يريد فتاة متعلمة، يريدها في المرحلة الإعدادية، وعلى الأكثر لم تصل إلى الشهادة الثانوية.

127. المدير والمدير العام

بعد أكثر من نصف ساعة من الموعد المحدد للاجتماع العام يدخل المدير، هو الاجتماع السنوي العام، دعا إليه كل العاملين في المؤسسة، حتى المستخدمين، أمضى أكثر من ساعة وهو يتحدث عن الواقع والأوضاع الراهنة في الداخل والخارج وفي العالم بقاراته الخمس على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فهو العليم بكل شيء، ثم بدأ في الدخول بقضايا المؤسسة، وطرح مشروع طلاء النوافذ والأبواب، واقترح اللون الأزرق، وقدم حججاً تؤكد جمال اللون الأزرق، ثم سأل إن كان هناك من يرغب في لون آخر، فلم يتكلم أحد، وطلب منهم رفع الأيدي للتصويت على الاقتراح، فرفع كلهم أجمعون أيديهم، ومنهم من رفع يديه الاثنتين، فأكد نيل الموافقة بالإجماع، ثم هم بطرح الموضوع الثاني، وإذا حارسه الخاص يدنو منه، ويهمس في أذنه، فنهض على الفور، وتوجه إلى الباب الخارجي، ثم دخل يتقدمه المدير العام، وهو يحث الخطا في إثره، ثم جلس على يمينه، ورحب بالمدير العام، وشكر له حضوره، ورعايته الاجتماع، وأكد أنه لم يبدأ بعد في طرح أي مشروع أو قضية من قضايا المؤسسة، ثم أعلن عن المشروع الأول وهو طلاء النوافذ والأبواب، فاقترح المدير العام اللون الأسود، فانبرى المدير يدافع عن اللون الأسود، ويقدم الحجج والبراهين على جمال اللون الأسود وفوائده ودلالاته وتاريخه، ثم طلب من الحضور رفع الأيدي للتصويت على الاقتراح فرفع كلهم أجمعون

أيديهم الاثنتين، فأكد المدير نيل الموافقة بالإجماع، ودوت القاعة بالتصفيق، ووقف الجميع احتراماً وتأييداً وتقديساً...

128. اعتزال

الألم في صدري ما يزال، لا هو يشفى، فيزول، ولا هو يميتني فأستريح، الوجبة الثانية من الدواء نفدت، والألم ما يزال، أمضي إلى عيادته، هو صديق العمر، وهو طبيبي وطبيب الأسرة، أصعد الدرج إلى عيادته، أفتح الباب وأدخل، فأدهش، أين اللوحات وهي تصور الجسد البشري والعضلات والأعصاب والأوردة والعروق؟ أين السرير الأبيض؟ وينهض لاستقبالي، أين الصدرية البيضاء؟ أين السماعة المعلقة على الأذنين؟ لوحات طبيعية هادئة احتلت الجدران، لا رائحة دواء، ولا خزانة دواء، ولا منصة عليها إبر وعقاقير وقطن ومقصات، رفوف تحمل كتباً وهدايا وتماثيل صغيرة. يفتح يديه ليعانقني وهو يقول:

ـ هنئني، بارك لي، اعتزلت الطب، أنا اليوم أديب فقط، أنا أنافسك في الشعر والقصة والنقد، هل قرأت اللوحة على مدخل العيادة؟ أنا متأكد أنك لم تقرأها، تعال.

ويأخذني من يدي، إلى مدخل العيادة، لأقرأ: " نادي الأمل للآداب والفنون"، ثم يعود بي، لنقعد متقابلين، وهو يفتح ديوان شعر، يهم بالقراءة فيه. أقول له قبل أن يبدأ القراءة:

ـ قبل أن تقرأ، أود سؤالك

يقاطعني، يقف، يروح ويجيء، يقول وهو ينفث دخان غليونه:

ـ أعرف سؤالك، لا تظن أني اعتزلت الطب لأمارس هوايتي، أنا كنت أمارسها قبل أن أعتزل، كان بإمكاني أن أستمر في ممارسة الطب، وممارسة الأدب، ولكن يئست، لا يمكن شفاء الأجساد، لا يمكن، نحن نخفف من الألم فقط، لابد للخلية أن تشيخ وتموت، لا بد للجسم أن يمرض، الشفاء مستحيل، الأهم شفاء الأرواح، شفاء النفوس.

هل أعتزل أنا الأدب؟ هل تكون هذه آخر مجموعة قصصية لي؟

129. قصة جديدة

اليوم، في الصباح الباكر، قبل أن أطبع المجموعة، أقعد وراء الحاسوب، لأكتب قصة جديدة. أظن أني سألحق المجموعة إلى المطبعة لأضيف قصة جديدة. القصص لن تنتهي.

هدية

كثيرات أحمل أسماءهن وأرقام هواتفهن في دفتري، وحدك لا يحتوي دفتري اسمك ولا رقم هاتفك، ولكن وحدك من أتصل بك كلما ابتعدت عنك، وأنا لا أبتعد عنك إلا لكي أعود إليك، وحين أبتعد عنك لا أبتعد، وكيف أبتعد وأنت في داخلي، وأنا في داخلك. كثيرات مثل حقل من زهر أراهن في كل مكان، يصنعن الجمال والشعر، أراهن وأعرفهن، وأتعامل معهن بكل الود، وقد أعجب ببعضهن ولكنك وحدك من اخترت، وأظل أختارك دائماً، ولا أفكر في سواك، أنت وحدك من تكفيني. كثيرات يصنعن الحياة، قد تكون فيهن من هي أجمل وأذكى وأكثر فتنة، ولكن أنت وحدك عندي الأكثر منهن جميعاً فتنة وجمالاً وذكاء وصدقاً، أنت وحدك الأبقى.

كل الأصدقاء يتحدثون عن صديقات وعشيقات ونساء، كأنه لابد أن يكون للرجل أكثر من امرأة، ولكن أنت وحدك المرأة التي تكفيني، لا أتحدث لهم عنك، ولكنك وحدك كل حديثي، أنت حروفي وكلماتي، وحدك تاريخي، كل ما كتبت هو لك وعنك ولأجلك، وكل ما قد أكتب، أنت وحدك أول من يقرأ ما أكتب، ثم بعد ذلك يأتي الآخرون.

كم أود لو بك وحدك أحيا، ولكن حتى حين أكون مع الآخرين أكون معك، وسرعان ما أرجع إليك، كالدم يجول في أعضاء الجسم كله، ثم يعود إلى القلب. أنت القلب، في هذا المجتمع وفي هذا العالم، وفي هذا الكون.

أنا على يقين من أننا في يوم الحشر سنكون معاً، وفي الجنة سنكون معاً، وكم أتمنى أن نكون معاً حتى في القبر. كم أتمنى أن نموت معاً، كم أتمنى أن أموت قبلك، كي لا أرى موتك، وإذا مت قبلك، فلا تحزني بعدي. نحن سنبقى معاً حتى لو مات أحدنا، كياننا الواحد لا يموت، ولو مات أحدنا. أنت تكوَّنت مني، وأنا تكونت منك، أنت بعض مني وأنا بعض منك، خلاياي نمت وتجددت من رضابك، وخلاياك نمت وتجدد من دمي، الرغيف الواحد نأكله معاً، الأغنية الواحدة نسمعها معاً، ونعجب بها معاً ، والهم الواحد نحمله معاً، والفرح الواحد مثل الحزن الواحد نعيشه معاً.

أجمل اللحظات حين أسافر معك، كم أود أن يكون المقعد ضيقاً أكثر كي ألتصق بك أكثر، الدفء في جسدك يمنحني حياة جديدة، يجدد في داخلي الطاقة، بك أواجه الحياة، بك أحيا. كلما سرنا معاً في شارع من شوارع مدينتنا، أحس أني أكتشف الشارع من جديد، أحس أني أزرع فيه ذكريات جديدة، مع أننا سرنا في الشارع نفسه من قبل عشرات المرات، معك لا أمل ولا أضجر، معك أتجدد.

كم أحب شراء الحاجات من السوق بصحبتك، ممتع جداً الشراء بصحبتك، ممتع جداً حمل الأشياء معك من السوق إلى البيت، معك لا أخشى الإنفاق لا أكرهه، حين أكون وحدي كم أكره شراء الحاجات، أشعر بمتعة دفع النقود وأنت معي، ممتع جداً عودتنا معاً إلى البيت نحمل الحاجات، لأجلك لأجل أولادنا، أيتها الزوجة الحنون، أيتها الأم والأخت والعشيقة والصديقة، أيتها المرأة، أيتها الزوجة، يا أنت يا كل النساء، يا أنت يا وحدك، يا أنا يا أنت، بأي صفة أناديك؟ لا أعرف؟ كل الصفات لا تكفي، أنت تجمعين كل الصفات، وتضيفين إليها صفات جديدة، لا أعرف كيف أناديك.

كنت معي دائماً، حين لم يكن معي سوى ليرة واحدة، كنت معي دائماً حين أصبح معي أكثر، ولا تريدين الأكثر ، أنت معي وأنا أنشر أول مجموعة قصصية، وأنت معي حين نشرت مجموعتي التاسعة، وتريدين أكثر، أدخل إلى البيت حاملاً كتاباً جديداً، دفعت فيه ثمناً عالياً، تسرعين إليه، تفرحين به كفرحك بثوب جديد، امتلأت غرفتي بالكتب، ولم تمتلئ خزانتك بالثياب، وما زلت تفرحين مثلي بالكتب الجديدة، بخلاف ما يتحدث عنه كل الأصدقاء.

لأنك معي أعيش وأكتب وآكل وأنام، لا أتصور أني يمكن أن أعيش وحدي، كم أحب أولادنا، ونحن نجتمع بهم على مائدة واحدة، نعدّهم واحداً واحداً: وصفية، مصطفى، أمل، نورة، مجد، عبير، ذكرى، محمد، فاطمة، نصب لهم الشاي، أحبهم، لأنهم خرجوا منك، لأنهم بضعة منك، أنت جئت بهم، نفرح إذ نراهم يكبرون، ولا نبالي إذ نكبر معهم، نكبر بهم بورك رحمك، أيتها الأم.

هذا الصباح جميل ورائق، لأني أكتب لك فيه هذه الكلمات، كنت أرفض من قبل أن أكتب لك مثل هذا الكلمات المباشرة الواضحة المكشوفة، وحتى الآن لا أريد أن أكتب، لأن هناك أكثر وأكثر مما يمكن أن أكتب لك وعنك وبك، ومهما كتبت يبق هناك ما هو أكثر، وما هو أنت به أجدر. أنت النبض، أنت وراء كل الكلمات، كل ما كتبت، وكل ما قد أكتب، كل الكلمات لك.

2005/12/31

الدكتور أحمد زياد مُحَبِّك

أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب

من مواليد مدينة حلب عام 1949

الإجازة في اللغة العربية وآدابها من جامعة حلب عام 1972.

الماجستير في الآداب من جامعة حلب عام 1981.

الدكتوراه في الآداب من جامعة دمشق عام 1984.

عين مدرساً في وزارة التربية عام 1974.

عين معيداً متفرغاً في كلية الآداب بجامعة حلب عام 1997.

عين مدرساً بجامعة حلب بتاريخ عام 1984.

رفع إلى مرتبة أستاذ مساعد عام 1990.

رفع إلى مرتبة أستاذ عام 1995.

عين رئيساً لقسم اللغة العربية بجامعة حلب بتاريخ 1999/12/1، وبقي فيه دورة واحدة.

عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق منذ عام 1983 .

عضو هيئة تحرير جريدة الأسبوع الأدبي من عام 1997إلى عام 2000 .

حاز جائزة البتاني في الرقة عن القصة القصيرة عام 1997.

حاز جائزة جريدة الثورة بدمشق عن القصة القصيرة عام 1998.

حاز جائزة الباسل للإبداع الفكري بمدينة حلب عام 1998.

أمين سر اتحاد الكتاب العرب – فرع حلب منذ عام 2001 وحتى اليوم.

أوفده اتحاد الكتاب العرب لمدة أسبوع إلى الجزائر العاصمة 1988.

أوفدته جامعة حلب إلى فرنسا ليحاضر في طلاب الدراسات العليا بجامعة ليون الثانية لمدة أسبوع عام 1994.

شارك في ندوة التراث الشعبي ببيروت عام 1999.

شارك في مؤتمر الرواية العربية في طرابلس ليبيا عام 1999.

حاضر لمدة أسبوع في مدرسي اللغة العربية بمعهد تعليم اللغات الأم في استوكهولم بالسويد بدعوة من المعهد نفسه عام 2000.

كرمته جمعية النقد الأدبي في اتحاد الكتاب العرب بدمشق بالتعاون مع فرع اتحاد الكتاب العرب في حلب عام 2001.

أوفد إلى جامعة عين شمس بالقاهرة بمهمة البحث العلمي لمدة أربعة أشهر عام 2002.

عضو لجنة تحكيم في مسابقات كثيرة في اتحاد الكتاب العرب وفي اتحاد شبيبة الثورة ومنظمة الطلائع وجائزة باسل للإبداع الفكري في مدينة حلب لدورات متعددة.

عضو لجنة تحكيم في مسابقة القصة القصيرة التي أعلنت عنها مجلة ديوان العرب (الإلكترونية) في القاهرة عام 2005.

المؤلفات المنشورة

حركة التأليف المسرحي في سورية، (دراسة) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1982

من الحكايات الشعبية، (حكايات شعبية) وزارة الثقافة، دمشق، 1983.

يوم لرجل واحد،(قصص)اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1986

المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر، (دراسة) دار طلاس، دمشق، 1989

حجارة أرضنا، (قصص) مطبعة عكرمة، دمشق، 1989

الكوبرا تصنع العسل، (رواية) دار القلم العربي، حلب، 1996

بدر الزمان، (مسرحية) دار القلم العربي، حلب، 1996

حلم الأجفان المطبقة، (قصص) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996

عريشة الياسمين، (قصص) دار القلم العربي، حلب، 1996

دراسات في المسرحية العربية،(دراسة) مطبوعات جامعة حلب، حلب، 1997

حكايات شعبية (نصوص ودراسة)اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999

دروب الشعر العربي الحديث (دراسة) مطبوعات جامعة حلب، حلب 2000 .

لأنكِ معي (قصص قصيرة جداً) دار شمأل، دمشق، 2000 .

طعم العصافير (قصص) دار القلم العربي، حلب، 2001.

قصائد مقارنة (دراسة ونصوص) مطبوعات جامعة حلب، حلب،2001.

دراسات نقدية من الأسطورة إلى القصة القصيرة (دراسة)منشورات دار علاء الدين، دمشق،2001

العودة إلى البحر(قصص) اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2001.

الرحيل من أجل مها (قصص) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.

انكسارات (بحوث ومقالات) دار المعرفة، بيروت،2004.

الدكتور أحمد زياد محبك (كتاب التكريم)اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004.

متعة الرواية (دراسة) دار المعرفة، بيروت، 2005.

من التراث الشعبي (دراسة) دار المعرفة، بيروت، 2005.

وردات في الليل الأخير (قصص) دار المعرفة، بيروت، 2005.

عمر أبو ريشة والفنون الجميلة،(دراسة)، وزارة القافة، دمشق، 2006

قصيدة النثر، (دراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2007.

قراءات في الشعر العربي الحديث(دراسة)، منشورات جامعة حلب، حلب، 2007

عنوان المراسلة :

البريد العادي : كلية الآداب جامعة حلب حلب سورية

البريد الإلكتروني : mohabek @ scs-net.org

هاتف المنزل : 2642132

الهاتف الجوال : 0944928792